إبراهيم مضواح الألمعي

عندما كان الكبار تلامذة





طبعة جديدة ومزيدة
2013م



إبراهيم مضواح الألمعي - 1969م

- **من طيبات أبي الطيب** (مختارات من روائع المتنبي) 1997م.
- **روائع الطنطاوي** (روائع من أدبه وفوائد من كتبه) 2000م.
- **الفوائد الطنطاوية** (فوائد لغوية) 2000م.
- **قطف الأشواك** (قصص قصيرة) 2001م.
- **على رصيف الحياة** (قصص قصيرة) 2003م.
- **الطنطاوي بعيون مختلفة** (دراسة) 2004م.
- **عندما كان الكبار تلامذة** (حكايات الأدباء عن معلميهم) 2005م.
- **التابوت** (قصص قصيرة) 2008م.
- **حديث الرخام** (قصص قصيرة) 2008م.
- **جبل حالية** (رواية)، جائزة الشارقة للإبداع العربي. 2009م.
- **أشتات.. مقالات في الأدب والفكر والحياة** 2011م.
- **واسال القرية.. من ذاكرة القرية والطفولة..** 2011م.
- **عتق** (رواية)، جائزة نادي حائل الأدبي للرواية 2012م.

إبراهيم مضواح الألمعي

عندما كان الكبار تلامذة

حكايات كبار الكتاب والأدباء والمفكرين عن معلميهم



إبراهيم مضواح الألمعي

عندما كان الكبار تلامذة

طبعة جديدة ومزيدة



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-345-5

الطبعة الثانية 2013

الفهرس

تقدمة

يومًا بعد يوم يزداد شغفي بقراءة السِّيَر الذاتية، وتزداد المتعة التي أجدها عندما أرى إنسانًا تمتد تجربته عقودًا من الزمن يلتفت إلى الوراء متأملًا آثار وقع قدميه بعد السير الطويل، وللمتعة التي نجدها في هذا الفن الأدبي أعني(السيرة الذاتية) يرى الروائي العالمي غابرييل غارسيا ماركيز[1] أن الحياة الحقيقية هي ما تختزنه الذاكرة ثم نرويه، لا ما نعيشه فقط: **«الحياة ليست ما يعيشه أحدنا، وإنما هي ما يتذكر، وكيف يتذكره ليرويه»**[2]. على أنه يتسرب إلى هذا النوع من التأليف حظوظ النفس، وتبرير المواقف، وتجميل الأحداث، مما لا ينطلي على فطنة القارئ الفاحص.

ومما يلفت انتباه قارئ السِّيرِ الذاتية بروز مرحلة التَّعلُّم بأحداثها، ومواقفها، وتأثيرها في اتجاه الكاتب، وتأسيسها للمراحل التالية من حياته، وبداية تكوين العلاقات الإنسانية مع المحيط الذي يتجاوز حدود الأسرة،

---

(1) غابرييل غارسيا ماركيز: (1928م ـ . . . .) روائي كولومبي عالمي شهير نال جائزة نوبل في الآداب عام 1982م.

(2) **عشتُ لأروي**، غابرييل غارسيا ماركيز، ترجمة: صالح علماني، ج1، ص 7، ط1، 2003م، دار البلد للنشر والتوزيع، دمشق.

فنجد رصدًا دقيقًا لمواقف المعلمين وتصرفاتهم، وكلامهم وحركاتهم وسكناتهم، وعلاقاتهم بتلاميذهم، ونلحظ ذلك في حياة المثقفين بعامة، وفي حياة الأدباء بشكل أوضح، مما يجعلهم يفردون صفحات غيرِ قليلة في سيرهم الذاتية لمراحل تعليمهم؛ ولأنها مرحلةٌ مفصلية في حياة هؤلاء الكتاب، تجمع بين جانبي الأدب والتربية، ولأن هذين الملمحين هما مجالا اهتمامي الوظيفي والمعرفي فقد جمعت بعض ما قرأت في سير ذاتية لأبرز الأدباء والمثقفين والمفكرين العرب؛ الذين كتبوا عن هذه المرحلة من حياتهم.

وسنقرأ في هذه الصفحات نماذج للعلاقة بين التلاميذ ومعلميهم من خلال ما يختزنه التلاميذ في ذاكرتهم من مواقف وذكريات؛ أثَّرَتْ بشكل أو بآخر في حيواتهم، ثم استرجعوها في موهنٍ من العمر فدونوها، ثم ذهب الأستاذ والتلميذ وبقيت شهاداتهما للتاريخ.

إبراهيم مضواح الألمعي

قديمًا فعلوا..

جرتْ سنةُ العلماء من قديم أن يسجِّلوا شهاداتهم لشيوخهم ومعلميهم، ومن قرأ الذهبي[1] في (سير أعلام النبلاء) والشوكاني[2] في (البدر الطالع) وجد ذلك بيّنًا، وكذلك نجد الإمام ابن الجوزي[3] في كتابه (صيد الخاطر)، يوجز الكلام عن شيوخه فيقول: «**لقيت مشايخ أحوالهم مختلفة يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه، وإن كان غيرُه أعلمَ منه.**

ولقيتُ جماعة من علماء الحديث يحفظون ويعرفون ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرحٍ وتعديل، ويأخذون على قراءة الحديث أجرة، ويسرعون الجواب لئلا ينكسر الجاه وإن وقع خطأ. ولقيت عبد

---

(1) الذهبي: (673 ـ 748هـ) حافظ، مؤرخ، علامة محقق. مولده ووفاته بدمشق.

(2) الشوكاني: (1760م ـ 1834م) فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء.

(3) ابن الجوزي: (508هـ ـ 597هـ) علامة عصره في التاريخ والحديث، له نحو 300 مصنف، مولده ووفاته ببغداد.

الوهاب الأنماطي[1] فكان على قانون السلف لم يُسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجرًا على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكاؤه، فكنت وأنا صغير السن حينئذ يعمل بكاؤه في قلبي، ويبني قواعد، وكان على سمتِ المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل، ولقيتُ أبا منصور الجواليقي[2]، فكان كثير الصمت، شديد التحري فيما يقول، متقنًا محققًا، وربما سُئل المسألة الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض غلمانه فيتوقف فيها حتى يتيقّن، وكان كثير الصمت، فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما»[3].

(1) عبد الوهاب الأنماطي: (462هـ ـ 538هـ) محدث بغداد في عصره، مولده ووفاته فيها.

(2) أبو منصور الجواليقي: (466 هـ ـ 540هـ) عالم بالأدب واللغة، مولده ووفاته ببغداد.

(3) **صيد الخاطر**، ابن الجوزي، مراجعة وتحقيق (علي وناجي الطنطاوي)، ص 140، ط5، 1991م، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة.

الغزالي[1] يعرب وأستاذه يبكي

وبرغم تغيُّرِ الزمان والمكان، يبقى أثر دموع الأستاذ في نفس التلميذ كما هو، ومصداق ذلك في المقارنة بين كلام ابن الجوزي عن شيخه عبد الوهاب الأنماطي، وكلام الشيخ محمد الغزالي عن أحد أساتذته إذ يقول: «**سألني مدرس النحو وأنا طالب في المرحلة الابتدائية: أعرب يا ولد «رأيت الله أكبر كل شيء» فقلت على عجل: رأيت فعل وفاعل، والله منصوب على التعظيم!**

وحدثت ضجة من الطلبة، ونظرتُ مذعورًا إلى الأستاذ، فرأيت عينيه تذرفان!! كان الرجل من أصحاب القلوب الخاشعة، وقد هزه أني التزمتُ الاحترام مع لفظ الجلالة ـ كما علموني ـ فلم أقل إنه مفعول أول، ودمعت عيناه تأدبًا مع الله!! كان ذلك من ستين سنة أو يزيد ﷺ.. وأجزل مثوبته»[2]!

---

(1) محمد الغزالي: (1917م ـ 1996م) أحد أبرز الدعاة والمفكرين المعاصرين، امتاز بسعة الأفق وأدبية الأسلوب، وفقه الواقع.

(2) مجلة (**إسلامية المعرفة**)، العدد السابع، رمضان 1417 هـ، يناير 1997 م، ص156.

وقد تناول المعاصرون أساتذتهم وسجلوا مواقفهم وأقوالهم، فحمدوا المخلصين الصادقين من المعلمين، الذين يتصلون بتلاميذهم، ولا يَحْرِفُونَ إلى غيرهم أنظارَهم، في حنو الأب، ودأب المؤمن بجلال رسالته، وذَمّوا أولئك الذين كانت عيونهم تتجه إلى من فوقهم من المسؤولين، أو لا تتجاوز النظر إلى دريهمات يقبضها أحدهم آخر الشهر، فلا تسد فاقته.. ومما يدعو للأسف أن يتحول المعلم إلى مجرد موظف، وليس أقبح من ذلك إلا التصريح به، وما كان يخطر ببالي أن يُصرِّح معلِّمٌ بذلك أمام تلاميذه أو يُلمِّح حتى قرأت قول الشيخ يوسف القرضاوي[1] في ذكرياته: «**وقد كان كثير [من المعلمين] يصرِّحُ بأن أكبر همه هو الراتب. وأذكر أن واحدًا منهم كان مغضوبًا عليه، وقد نُقل من القاهرة إلى طنطا، فسألناه: ألا يغضبك هذا؟ فقال بصراحة: أنا لا يهمني إلا راتبي، لو نقصوني جنيهًا واحدًا أو أقل، لقاتلتُ شيخَ الأزهر من أجله!**»[2].

وما أكثر الذين تناولوا معلميهم بالنقد ومراجعة المواقف فمنهم من ذم أناسًا وأثنى على آخرين فكان ذمُّه أكثرَ من ثنائه كطه حسين[3]، ومنهم الساتر للمسيئين

(1) يوسف القرضاوي: (1926م ـ . . .) فقيه أزهري مُجدد، من أبرز علماء الإسلام المعاصرين.

(2) **ابن القرية والكتاب**، د. يوسف القرضاوي، ج1، ص201، دار الشروق، القاهرة، 2002م.

(3) طه حسين: (1889م ـ 1973م) من كبار المحاضرين، وأكثرهم =

المعتذر لهم، المفيض في فضل شيوخه ومعلميه كعلي الطنطاوي[1]، ومنهم من كان شتامًا لأكثر الذين عرف، كعبد الرحمن بدوي[2]، الذي لم أره أفاض في الثناء على أحد سوى الشيخ مصطفى عبد الرازق[3]، ولا عجب في ذلك، فمن عرف مصطفى عبد الرازق ولم يُثنِ عليه؟!

= تأثيرًا وإثارة في عالم الثقافة والأدب. لقب بعميد الأدب العربي.

(1) علي الطنطاوي: (1909م - 1999م) أديب وفقيه اشتغل بالأدب والقضاء، وسطع في الحديث الإذاعي والتلفزيوني. دمشقي المولد والنشأة.

(2) عبد الرحمن بدوي: (2002م - 1917م) فيلسوف مصري، درَّس الفلسفة في الجامعات المصرية والفرنسية، والليبية، والإيرانية، وألف وترجم كتبًا كثيرة في الفلسفة.

(3) مصطفى عبد الرازق: (1946م - 1985م) باحث في الشريعة والأدب، كان وزيرًا للأوقاف، ثم شيخًا للأزهر.

الأستاذ المجمع على حبه

وإذا لم يكن الثناء على مصطفى عبد الرازق مثيرًا للعجب فإن المثير للعجب حقًا هو اجتماع تلك السجايا في رجلٍ واحد، ولعجبي أسوق شيئًا من ثناء معاصريه وتلاميذه عليه، فقد أسبغ الدكتور عبد الرحمن بدوي - على غير عادته - أوصافًا عظيمة على الشيخ مصطفى عبد الرازق فقال: **«لقد كان النبلَ كلَّه، والمروءةَ كلَّها. كان دائمًا هادئ الطبع، باسم الوجه، لا يكاد يغضب، وإن غضبَ لم يُعبِّر عن غضبه إلا بحمرة في وجهه وصمتٍ كظيم: لقد كان آيةً في الحلم والوقار. لكنَّه وقارٌ عفو الطبع، لا تكلُّفَ فيه ولا تصنُّع، وفي حالات الأنس بمحدثيه من الأصدقاء أو التلاميذ كان ودودًا محبًا للسخرية الخفيفة، وإذا أراد التقريع لجأ إلى التهكم اللاذع.**

وكان آية في الإحسان إلى الآخرين، ما لجأ إليه مظلوم إلا حاول إسعافه، أو صاحب حاجةٍ إلا بذل ما استطاع حتى لو كان من ماله، وكم له من أيادٍ بيضاء على بعض طلابه الذين سألوه المساعدة، رغم أنهم لا يستحقونها، كما تجلَّى في سلوكهم فيما بعد!. وكان

عزوفًا عن المناصب الإدارية، يتنازل عنها لمن هو حريص عليها»[1].

وعنه يقول الكاتب الكبير نجيب محفوظ[2] بعد حديثه عن بعض معلميه: **«الشيخ مصطفى عبد الرازق هو أكثرهم تأثيرًا خلال الدراسة الجامعية، الشيخ مصطفى عبد الرازق هو مثال للحكيم كما تتصوره كتب الفلسفة، رجل واسع العلم والثقافة، ذو عقلية علمية مستنيرة، هادئ الطباع، خفيض الصوت لا ينفعل ولم أره مرة يتملكه الغضب»**[3].

وعنه يقول: خير الدين الزركلي[4] في كتابه (الأعلام): **«كان هادئ الطبع، يتمهل في تفكيره قبل أن يتكلم أو يكتب، وقورًا مع التواضع، يستجم لبعض أنسه ولا يتبذل، نقي الأسلوب في بيانه، نير الفكر محاضرًا وكاتبًا، يحاسب نفسه على كل كلمة»**[5].

---

(1) **سيرة حياتي**، عبد الرحمن بدوي، ج1، ص 61، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2000م.

(2) نجيب محفوظ: (1911م ـ 2006م) كاتب قصة وروائي كبير، حاز جائزة نوبل للآداب عام 1989م.

(3) نجيب محفوظ، **صفحات من مذكرات وأضواء جديدة على أدبه وحياته**، إعداد: رجاء النقاش، ص63، ط1، 1998م، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة.

(4) خير الدين الزركلي: (1893م ـ 1976م) شاعر رقيق وأديب سوري، اشتغل بالدبلوماسية، أنجز كتاب الأعلام في ثمانية مجلدات الذي يعده بعضهم من أهم مؤلفات قرن العشرين في بابه.

(5) **الأعلام**، خير الدين الزركلي، ج 7، ص 231، ط8، 1989م، دار العلم للملايين، بيروت.

وعنه تقول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد[1] في كتابها (أعلام في حياتنا): **«كان مهيب الطلعة، وكان خاشع الصوت، دمث الأسلوب والنفس والبيان، لم ينطق في حياته لفظًا نابيًا، ولم يكتب في حياته أسلوبًا فجًا، كان عف اللسانِ واليدِ والضمير»**[2].

ويصفه الأستاذ كامل الشناوي[3] في كتابه (لقاء معهم) فيقول: **«كانت أفكاره وألفاظه ومشاعره وعقيدته وأخلاقه مثل ثيابه نظيفة»**[4].

ويصفه الأستاذ حسين أحمد أمين[5] في كتابه: (شخصيات عرفتها)، فيقول: **«كان أكثر أهل الأرض سماحةً في طباعه، ورحابةً في أُفقه، وأعمقهم أدبًا واحترامًا، إزاء الرأي المخالف لرأيه، وأصبرهم على النقد، وأخلاهم من كل أثرٍ من آثار الحفيظة الحقد»**[6].

---

(1) نعمات أحمد فؤاد: (1927م ـ . . . .) باحثة مصرية، شغلت عدة مناصب هامة، وقامت بالتدريس بجامعات دول عديدة.

(2) **أعلام في حياتنا**، د. نعمات أحمد فؤاد، ص 17، كتاب الهلال، العدد (613)، يناير 2002م.

(3) كامل الشناوي: (1908 ـ 1965)، شاعر وصحفي مصري.

(4) عن كتاب: **أعلام في حياتنا**، ص 17، مرجع سابق.

(5) حسين أحمد أمين: (1932م ـ . . . .)، كاتب ودبلوماسي مصري، وهو ابن الكاتب الكبير أحمد أمين.

(6) **شخصيات عرفتها**، حسين أحمد أمين، ص22، ط1، 2007م، دار العين للنشر، القاهرة.

بين الإمام والتلميذ

وإذا كان هذا رأي تلاميذ مصطفى عبد الرازق ومحبيه فيه، فلننظر إلى مواقفه مع أستاذه الإمام محمد عبده[1]، وقد دوَّن ذلك الدكتور محمد رجب البيومي[2] أحد الذين كتبوا بحروف مدادها الحب؛ فقال: «**نشأ مصطفى في بيت علم وجاه، إذ كان جده من كبار قضاة الشرع في عصره، وله ذيوع ممتد بالعلم والكرم، أما والده فقد تعلم بالأزهر، ودرس كتبه، ثم اتصل بالسياسة عَلَمًا ذا رأي مسموع في مجالس النيابة، ومواقف السياسة، وقد شارك الشيخ محمد عبده في مواقف كثيرة، فانعقدت بين الرجلين أواصر الصداقة، ونشأ مصطفى، فاتجه به والده إلى الدراسة الدينية، وجعل ينظر فيمن يتصدرون للعلم بالأزهر وخارجه، فلا يجد أنبه من الأستاذ الإمام ذكرًا، ولا أكثر منه تأثيرًا ونفاذًا.**

ثم أتيح له أن يشاهده عن عيانٍ حين كان يزور

(1) الإمام محمد عبده: (1849م - 1905م) مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام.

(2) محمد رجب البيومي: (1923م - 2011م) شاعر وأديب، وباحث متعمق في الأدب، والنقد، والدراسات التاريخية.

أباه، وأن يستمع إلى حواره متحدثًا في العلم، ومناقشًا في السياسة، وأن يقرأ مقالاته في الصحف، وآراءه في الكتب، وأن يجلس إلى بعض دروس التفسير في الرواق العباسي، ليجد في دروس الإمام غير ما يعهد في دروس سواه.

أتيح له ذلك كله، فذهب الشيخ محمد عبده بإعجابه في كل منحى من مناحيه، واتقدت في نفسه رغبة في الكتابة الأدبية، والخطابة التوجيهية، فأنشأ مع إخوته صحيفة منزلية قام على تحريرها الطالب الأزهري الناشيء، واشترك مع أخيه (علي)[1] في طباعة النسخ على أوراق الكربون، وفي توزيعها على أفراد العائلة، وانتقل من هذا الحيز الضيق سريعًا إلى ميدان فسيح، حين اتصل بالجرائد اليومية كاتبًا قبل أن يبلغ سن العشرين، ثم سَمتْ به همته إلى أن يفصح عن ذات صدره إلى الأستاذ الإمام.

ومن يعرف حياء مصطفى، وشدة حساسيته يقدر شجاعته الأدبية حين خط كتابًا إلى أستاذه يحدثه عن حيرته البالغة، إذ يجد نقصًا في وسائل التعليم الأزهري، وانكماشًا مع أساتذة الأزهر عن معالجة شؤون الحياة، وتراجعًا في البلاد الإسلامية عن اتباع

---

(1) علي عبد الرازق: (1888م ـ 1966م)، صاحب الكتاب الشهير: (الإسلام وأصول الحكم)، وعضو مجمع اللغة العربية، ولي وزارة الأوقاف المصرية.

منهج الإسلام، مما أوقعه في أسى بالغ لا يعرف السبيل إلى الخلاص منه.

وقد وقع خطاب مصطفى من الأستاذ الإمام موقعًا سارًا بهيجًا، فكتب الرد بنفسه، وقال فيما كتب: (ما سررت بشيء سروري أنك شعرت في حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك، فلله أنت، ولله أبوك، ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالثناء لسقت إليك من المديح ما يملأ عليك الفضاء، ولكنني أكتفي بالإخلاص في الدعاء لك، أن يمتعني الله في نهايتك بما تفرسته في بدايتك).

ولم يكتف المصلح الكبير بالرد التحريري، بل سأل عنه في زيارة خاصة به كانت موضع ارتياح الوالد الكبير، واستمع الأستاذ إلى تلميذه مقدرًا موجهًا، ومجلس تربوي كمجلس الإمام من تلميذه، لا بد أن ينفخ فيه من روح اليقظة ما يشعل في صدره جذوات الإصلاح، ويدفعه دفعًا إلى أدواته الأولى من اكتمال التثقيف، وعمق الدراسة، وتفهم روح العصر، و هذا ما كان عن واقع ملموس ظهرت بوادره الناهضة في تفوق مصطفى العلمي، وفي مواصلة الكتابة الصحفية، بل إن روح الإمام، قد أذكتْ في نفسه بواعث الشعر، فاتجه إلى مديحه بقصيدة طويلة قال فيها:

أقبلْ عليك تحيَّة وسلامُ

يا ساهرًا والمسلمون نيامُ

إنْ يقدروا في الغرب قدرك حقه
فلمِصرُ أولى منهمُو والشامُ
كالبدر أنّى سار يشرق نوره
والحقُّ أنَّى حلَّ فهو إمامُ
فيك الرجاءُ لأمَّةٍ لعبتْ بما
يُلهي الصغار، وجدّت الأيامُ

لم يمتَّع الناشئ كثيرًا بحياة أستاذه، حيث فوجئ بانتقاله إلى رحمة ربه، فأذكت الحسرة قلبه، ورثاه بقصيدة حارة، تنبئ عن شاعرية رائعة لم تجد سبيلها فيما بعد، فأخذت تترقرق فيما أبدع مصطفى من خواطر أدبية.. هذه الحسرة التي صدقت بواعثها المشجية في نفس صاحبها، فتفجرت عن معانٍ صادقة لا يُلِمُّ بها غير من كان ذا قلب حافظ، وعمل واعٍ، وودٌ بالغ الإخلاص، وحزن لافح الفجيعة مما دفعه أن يقول:

يا دفين القلوب قد هابَك الدهرُ
فكيف اعتدى عليك الحمامُ
كنت طودًا إذا الخطوب ادلهمّتْ
لم تنلْ همّك الخطوبُ الجِسامُ
كنتَ حيَّ الفوادِ تصدعُ بالحقِّ
فتلوي عِنانَها الأوهامُ
رجلٌ كان حين يسلك فجًّا
تتحامى طريقَهُ الأيَّامُ
إنَّ قلبًا أصفاك بالودِّ حيًّا
صدَّعتْهُ بموتك الآلامُ

وأكبر من الرثاءِ الشعري، وأبعد منه أثرًا في الحياة أن يعيش مصطفى ما بقي من عمره متحدثًا عن آراء أستاذه، ومؤرخًا أدواره الإصلاحية، وشارحًا نضاله السياسي والتربوي، ومترجمًا آثاره العلمية»[1].

(1) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومي، ج 2، ص. ص (50 ـ 53)، ط1، 1995 م، دار القلم، دمشق.

طه حسين في الكُتَّاب

بدأت حياة كثير من رواد النهضة الأدبية المعاصرة في الكُتَّاب، فسجلوا ذلك فيما سجلوا من ذكرياتهم، فنجد طه حسين ـ مثلًا ـ قد تناول تفاصيل كثيرة، ونوادر عجيبة عن شيخه في الكتاب منها قوله: «**كان (سيدنا) قد تعوَّد متى دخل الكتَّاب أن يخلع عباءته.. ويلفها لفًا يجعلها في شكل المخدَّة ويضعها عن يمينه، ثم يخلع نعله ويتربع على دكته، ويشعل سيجارته، ويبدأ في نداء الأسماء**»[1].

وعن فقه شيخه في الكُتَّاب يقول ساخرًا: «**وكان من أذكى الفقهاء، وأشدهم علمًا وأقدرهم على التأويل. سأله الصبي[2] ذات يوم: ما معنى قول الله تعالى: «وخلقناكم أطوارًا» فأجاب هادئًا مطمئنًا: «خلقناكم كالثيران لا تعقلون شيئًا»**[3]

وهنا لا بُدَّ من الإشارة إلى ضخامة جرم الأستاذ الذي يفسر آيات الله الكريمات بجهل مطبق كهذا، حتى

---

(1) **الأيام**، طه حسين، ص 74، ط1، 1992م، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة.

(2) الصبي: يعني نفسه..

(3) **الأيام**، طه حسين: ص 74، مرجع سابق.

يسوِّغ له جهلُه تفسير كلمة (الأطوار) القرآنية بـ (الأثوار) لتقارب الوزن، إن كان هذا حدث حقًّا!! وعظم جرم الراوي أعني (طه حسين) إن كان ذلك لم يحدث، ولا بُدَّ أيضًا من إشارة أخرى، هي أن (طه حسين) قد أورد الآية خطأ في كتابه الأيام فجاءت هكذا: (وخلقناكم أطوارًا) وصحة الآية ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وهي الآية الرابعة عشرة من سورة نوح. غفر الله لنا ولهم.

علي الطنطاوي في الكُتَّاب

وعن شيخ الكتاب يقول الشيخ علي الطنطاوي:

«ولقد رأيت أول عهدي بها (أي الكُتَّاب) ما كرّه إليَّ العلم وأهله، ولولا أن تداركني الله بغير معلمي الأول لما قرأتم لي صفحة كتبتها ولا سمعتم مني حديثًا أو خطابًا ألقيته، بل لما قرأت أنا كتابًا

وكلوا بنا معلمًا شيخًا كبيرًا لا أسميه، فقد ذهب إلى رحمة الله، فكان يحبسنا فيها ونحن أطفال، ولا يدعنا نخرج منها حتى نكتب (ألف باء) كلها في ألواحنا الحجرية أربعًا وعشرين مرة، نكتبها ليراها وليمحوها، ثم نكتبها ليراها وليمحوها إلا أن يضطر أحدنا (أو يزعم أنه مضطر) للخروج إلى المرحاض فيسمح له بدقائق، إن زاد عليها ازدادت عليه ضربات الخيزران. كنا نكذب.. نعم! أفليسوا الذين دفعونا إلى الكذب؟»[1]

وليس غريبًا على أدب الطنطاوي وتدينه أن يسكت عن اسم معلمه توقيرًا له، ولكنَّ كثيرًا من الكتاب سموا معلميهم بأوضح أسمائهم ثم أوسعوهم ذمًا، وسنقرأ هنا شيئًا من ذلك.

---

(1) **الذكريات**، الشيخ علي الطنطاوي، ج1، ص. ص (30 ـ 31)، ط2، 1989م، دار المنارة، جدة.

أحمد السباعي[1] في الكُتَّاب

ومن أولئك الذين اكتووا بنار معلمي الكُتَّاب الكاتب أحمد السباعي، الذي أفاض في كتابه(أيامي)في ذكر حوادث ومواقف شيخ الكُتَّاب ومن ذلك قوله: «**كنا في نظر فقيه الكتاب أوزاعًا، تتنوع حقائبنا بتنوع أقيامنا الاجتماعية، شأننا في ذلك شأن الناس في نظر الحياة كما بلوناها فيما بعد.**

كان فينا المحظوظ بمركز أبيه، أو غناه، أو نفوذه الشخصي، وكان بيننا (الغلبان) لفقره أو يتمه أو ضعف شخصية أبيه... كنت أنا ونفر من أندادي لا نبتعد كثيرًا عن مجموعة (الغلبانين) لأن أولياء أمورنا كانوا من أصحاب البأس الذين وهبوا لحوم أولادهم للفقيه..

كُنا نُصطفى لكثيرٍ من الخدمات؛ فمنا من يكنس الكتَّاب، ومنا من ينظف المرحاض، ومنا من يحمل الماء إلى حيث تمسح الألواح، ومنا من يملأ (شربة) سيدنا ويبادر فيسقيه وعريفه إذا عطشا، ومنا من تخصص

(1) أحمد السباعي: (1905م ـ 1984م) أحد رواد الأدب والتربية والتعليم والصحافة السعودية، مكي المولد والنشأة والوفاة.

للمروحة إذا اشتد الحر علي سيدنا، أو يدلِّك رجليه إذا احتاج إلى (التكبيس).

كنت أشارك في بعض هذه الخدمات؛ أو أكثرها لأن سيدنا كان لا يدين كثيرًا بمبدأ التخصص، وكان يميزني ويختصني برعاية بالغة في بعض الأحيان فيسلمني نعاله أمضي بها إلى العم جابر الخراز وأبقى إلى جواره في انتظار الفراغ من تسميره، أو يبعث بي إلى أمه في دارها أحمل إليها (زنبيل المقاضي) وأقضي وقتًا غير يسير عندها أعاونها في غسل (الصحون) وأُعنى بطفلته الصغيرة عندها»[1].

وقد تجاوز معلم السباعي هذا طبقية النظرة إلى الطبقية في توزيع العقوبات، التي لاتخففها أدلة براءة الغلبانين، كما لا تصيب المحظوظين مهما كانت أدلة إدانتهم يقول السباعي: **«قلتُ مرة يا سيدنا هذا ولد العيدروس وولد الصافي يجرون خلفي في الأسواق ويصيحون (دولا مين.. دولا مين.. دولا نصارى والا يهود.. كشوا عليهم بالبارود) قلت له ذلك وأنا أجهش بالبكاء من فرط ما نالني من الألم، فنظر الشيخ إلى دموعي مرة وإلى خصومي ـ وكانوا من الفريق المحظوظ ـ أخرى؛ ثم رأى أن من الكياسة أن يتصرف في حزم، وأن ينسى المخطئين وأخطاءهم، وينتزع من هذا الغلبان**

(1) أيامي، أحمد السباعي، ص.ص (16 ـ 17)، ط 1، 1982م، مطبوعات تهامة، جدة.

ما يحقق عليه الجزاء والعقوبة. قال: أعد ما تقول فرحت أعيده في براءة الطفل:(دولا مين.. دولا مين.. دولا نصارى والا يهود.. كشوا عليهم بالبارود)فما ملك أن تصنَّع الغيظ لتبجحي في ترتيل مثل هذا القول على مسامعه، وشرع ينهال على طرف جسدي بخيزرانته اللدنة حتى ترك أثرها واضحًا في كل عضو مني.

ولكنه أبى في النهاية إلا أن يكون منصفًا في حدود ما يفسره من معاني الإنصاف، فقد التفت إلى خصومي بعد أن تركني في شبه غيبوبة، وأهاب بهم: يا واد ما تقعدوا عاقلين أنت وهوه!!»[1].

(1) المرجع السابق، ص.ص (17 ـ 18)

الشعراوي[1] في الكُتَّاب

ويبدو التشابه واضحًا بين الكتاتيب في الشام ومصر والحجاز، ولنقرأ كلام الشيخ الشعراوي عن أول يوم له في الكتاب إذ يقول: **«قبل أن يأخذني أبي إلى كُتَّاب سيدنا، وأنا صغير.. أعدني لهذا اللقاء.. اشترى لي كمية هدوم كويسة.. وأنا أتساءل ليلة ذهابي للكتاب بيني وبين نفسي: يارب.. ماذا يريد أن يفعل بي أبي؟!.**

وفي الصباح، صلينا الفجر وتناولنا الفطور.. وأخذني أبي من يدي، وذهبنا إلى كتاب سيدنا الشيخ عبد الرحمن.. وسلمني والدي إليه.. وهو يقول له:

(هذا ابني، اكسر له(ضلع).. وأنا أعالجه!).

ثم أشبعه توصيات من هذا النوع..

وسأله سيدنا: ابنك اسمه إيه؟

فرد والدي:

(1) محمد متولي الشعراوي: (1911م - 1996م)، أديب وشاعر في أول أمره، ثم انصرف إلى الدعوة والتفسير فكان فيهما إمامًا.

ـ اسمه الرسمي محمد.. لكن ستّه لأمه أسمته أمينًا.. وهي تحفظ القرآن الكريم.. فيصبح له اسمان.

فقمت أنا من مكاني، وقلت لهما:

لا.. هناك اسم ثالث.

فرد الشيخ عبد الرحمن:

ما هو الاسم الثالث يا بني؟

فقاطعته قائلاً:

قل لي ياوله.. مش يا بني.

فسألني: لماذا؟

فقلت لسيدنا: لأن ابن عمتي يناديني دائمًا يا وله.. ما يقوليش لا يا محمد ولا يا أمين.. يقول ياوله.

ضحك سيدنا الشيخ، وقال:

يا وله دي يعني يا ولد.. وهذه تقال لكل واحد في سنك.

فقلت لسيدنا:

أهم بيقولوا لي كده.. واحد يقول يا محمد.. وواحد يقول يا أمين.. وواحد يقول يا وله.. لخبطوني.. فتعودت على وله»[1].

---

(1) مذكرات إمام الدعاة، إعداد: محمد زايد، ص.ص (25 ـ 27)، ط3، 1998م، دار الشروق، القاهرة.

يوسف القرضاوي في الكُتَّاب

ومما يدل على أن معلم الكُتَّاب هو الذي يعلو بمنزلة كُتَّابه أو يهبط به ما ذكره الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي عن أول عهده بكُتَّاب القرية إذ جرّب اثنين من المعلمين رفض أحدهما ورضي الآخر فقال: «**وفي منطقتنا كان كتاب الشيخ يماني مراد، وكتاب الشيخ حامد أبو زويل. وقد ذهبت أول ما ذهبت إلى كتاب الشيخ يماني بإغراء من أحد أقاربنا الذي كان من تلاميذ هذا الكتاب. ولكني انتسبت إليه يومًا واحدًا فقط، ولم أعد إليه بعد ذلك، وذلك لأن الشيخ يماني ضرب التلاميذ جميعًا (لتنشيطهم) وكنت بالطبع من المضروبين. فعز علي أن أضرب ظلمًا وبلا سبب، وفي أول قدومي، ورفضت أن أعود إلى هذا الكتاب مرة أخرى.**

ويبدو أن كراهية الظلم والنفور منه، والثورة على مرتكبيه - ولو كان ظلمًا صغيرًا - خصلة قديمة عندي، أو هي فطرة فطرني الله عليها، فلا أحب أن أظلم أو أظلم، وقد تعلمت بعد ذلك أن النبي ﷺ كان يستعيذ بالله أن يظلم أو يظلم، أو يجهل أو يجهل عليه.

هذا الظلم الذي وقع عليَّ جعلني أنقطع عن الذهاب

إلى أي كُتّاب مدة من الزمن، حتى حرضتني والدتي - رحمها الله - على الذهاب إلى كُتّاب الشيخ حامد.. وبالفعل أخذت بيدي في زيارتها لبيت أبيها وسلمتني إلى الشيخ حامد، وقالت له: هو أمانة عندك.. قال لها: إنه ابننا وهو في أعيننا.

وفعلاً استقبلني الشيخ حامد ﷺ وكنت محظيًا عنده وعند والدته رحمها الله. وقد لاحظ الشيخ حامد أني تلميذ مجتهد، فقد لاحظ سرعة حفظي، وسلامة نطقي، كما لاحظ أني أول صبي يحضر إلى الكتاب..

كان الكتاب بمثابة المدرسة الخاصة، ولكن رسومه وأجوره كانت زهيدة بسيطة، فهو يأخذ نصف قرش في يوم الأربعاء من كل أسبوع، وذلك أن الأربعاء يوم سوق القرية. ولكن الشيخ حامد كان يتسامح معي إذا لم أجد نصف القرش، لأمرين: لأنه يعرف أني يتيم، والثاني: لنجابتي بين تلاميذه. وكان هذا من فضل الشيخ حامد ومكارم أخلاقه، حتى إنه أصبح يأخذ مني نصف القرش كل أسبوعين.

كان الشيخ حامد من حفاظ القرآن المحترمين، عزيز النفس، محتفظًا بكرامته. كان جل حفظة القرآن يقرءون في أيام الأخمسة على المقابر بأجرة زهيدة يدفعها أهل الموتى، كثيرًا ما تكون بعض المأكولات، ولكن الشيخ حامدًا نزه نفسه عن ذلك.

وكان رجلاً بسيطًا نظيفًا أنيقًا، يلبس جلبابًا

وعمامة، ويصلي الصلوات الخمس في المسجد، وهو قريب من البيت والكتاب، وكثيرًا ما يؤم الناس إذا تغيب الإمام الراتب.

كان الشيخ حامد حريصًا على أن يعلمني بعض الدقائق التي يراها تفيدني في حفظ القرآن، فأراه مثلاً حينما قرأت عليه قوله تعالى في سورة النحل: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: 29]، قال لي: هذه الآية الوحيدة التي فيها (فلبئس) وكل آيات القرآن (فبئس مثوى).

وكذلك عندما قرأت عليه قوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: 26] قال لي: هذه هي المرة الوحيدة بهذه الصيغة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

ولهذا لم يأخذ النصف الثاني من القرآن معي أكثر من ثلاثة أشهر، إذ كنت قد حفظت من قبل من سورة النجم إلى آخر القرآن.

وانتهى بي المطاف إلى اللوح الأخير في القرآن الكريم، وهو عادة يكون من سورة الضحى إلى سورة الناس، وفي العادة يكتب في لوح كبير، ويقرؤه التلميذ في حفل ختام القرآن.

واستعدَّ الكُتَّاب، واستعد التلاميذ فيه، واستعد الأقارب بإحضار الشربات و(الكراملة)، واستعد الشيخ حامد فدعا بعض أحبابه للحضور، واستعددت أنا لقراءة

اللوح الأخير في اليوم المشهود، يوم الختمة الكبيرة.

وكان حفلاً متواضعًا، ولكنه كان جميلاً ورائعًا، كنت أقرأ السورة، وفي ختامها أقول: لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد. وأولاد الكتاب جميعًا يرددون معي هذا الذكر بصوت جماعي مؤثر، من سورة الضحى إلى سورة الناس.

كان عمري في ذلك الحين تسع سنوات وبضعة أشهر، وكنت أصغر طالب حفظ القرآن في القرية، ولولا الأشهر العشرة التي غبتها عن الكتاب لختمت القرآن قبل سنة تقريبًا. ولكن كل شيء بأجل مسمى. ومن ذلك اليوم شيخني الناس، وسموني (الشيخ يوسف) حافظ كتاب الله.

كان من حق الشيخ حامد أن يحصل على جنيه مكافأة ختم القرآن، يأخذها عادة من كل تلميذ يتم حفظ القرآن، ولكنه ـ رعاية لحالي ـ اكتفى بنصف جنيه جزاه الله خيرًا»[1].

(1) ابن القرية والكتاب، د. يوسف القرضاوي، ج1، ص.ص (119 ـ 127)، مرجع سابق.

معلمو المدارس النظامية

كثيرًا ما يقع معلمو الكُتَّاب في أخطاء تربوية، ولعل ذلك يرجع إلى افتقار أكثرهم إلى معرفة الأساليب التربوية، ولظنِّ أكثرهم أن الترهيب هو الوسيلة الوحيدة لتعليم الصغار، بخلاف كثير من معلمي المدارس النظامية في المراحل الأولية، فقد اطلعوا على بعض المعارف التربوية، وحظوا بثناء تلاميذهم، فالدكتور إحسان عباس(1) ـ مثلًا ـ يشيد بمعلميه في سنته الدراسية الأولى فيقول: «**في المدرسة معلمان أحدهما المعلم الأول ـ وهو مدير المدرسة ـ واسمه عبد الرحيم الكرمي، والثاني مساعده، وهو شيخ معمَّم تخرج في جامع الجزار بعكا واسمه محمد حجازي وكل منهما وقت الدوام يدرِّس صفين معًا..**

أشهد أنهما كانا مخلصين في مهمتهما، كما كان أكثرنا مخلصًا في حبِّ التعلُّم، وكنا نهابهما فلا نحب أن يريانا ونحن نلعب، هذا مع أنهما لم يعرفا معنى العقوبة البدنية في التعليم»(2).

---

(1) د. إحسان عباس: (1920م ـ 2003م) من أبرز محققي التراث العربي، عالم بالأدب واللغة. أصله من فلسطين.

(2) **غربة الراعي**، د. إحسان عباس، ص. ص (31 ـ 32)، ط1، 1996م، دار الشروق، بيروت.

ويذكر لأستاذه عبد الرحيم موقفين، أحدهما عزز انتماءه إلى مدرسته، والثاني حفزه على الاجتهاد في دروسه فيقول: **«واقترح الأستاذ عبد الرحيم أن يتعهد كلٌ طالبٍ منا برعاية شجرة، تُضاف إلى اسمه، فهو يرويها بالماء عند حاجتها إليه، وقد كانت هذه العلاقة من أقوى العوامل التي حببت إلينا المدرسة..**

وكان عبد الرحيم قد عمد إلى تشجيع الطلاب المجتهدين بتخصيص جوائز، كانت الجائزة شيئًا بسيطًا لا تزيد عن دفتر جميل الغلاف نقي الورق، ولكنها كانت حافزًا»[1].

(1) المرجع السابق ـ ص34

زلة معلم

وليس خافيًا ضرورة إقصاء التلاميذ عما قد يقع بين المعلمين من جفاء أو خلاف، وعدم إقحامهم في ذلك، بأي صورة، وهذا ما لم يتنبه له أحد معلمي الدكتور إحسان عباس، فيرويه بعد ستين سنة من وقوعه فيقول: «**في أحد الدروس قال لنا الشيخ هل تعرفون من هو المتكبر؟ فبقينا صامتين ننتظر شرحه، فقال المتكبر رجل يحمل عصا ويلوّح بها وهو يمشي - في خيلاء - على إيقاعها، وفهمنا رسالة الشيخ، وعجبت أنا في سري من هذا اللمز، وأخذت أقدِّر أن الصفاء بين الرجلين ليس تامًا، وأن الظاهر لا ينبي عن الخفايا في النفس**»[1].

---

(1) المرجع السابق - ص 34

جبرا إبراهيم جبرا[1] في المدرسة الوطنية للمرة الأولى

وما أشبه صباح جبرا إبراهيم جبرا في المدرسة الوطنية، بصباح الشيخ الشعراي الأول في الكتاب، فقد كان ارتداء الثياب الجديدة أول المظاهر التي تُميِّزُ اليوم الأول في المدرسة؛ يقول جبرا إبراهيم جبرا: «**أيُّ صباحٍ حاسم في حياتي كان ذلك الذي ارتديت فيه سترتي الجيدة الوحيدة، وبنطلوني القصير غير المرقع وحذائي الملمع.. وكلي توجس وتوقع لذيذ، وأسرعت إلى ساحة باب المدير، ومنها إلى الأزقة التي خلف كنيسة المهد المؤدية إلى المدرسة الوطنية. كان ذلك عند افتتاح المدارس في أواخر أيلول من عام 1929م.**

في الطريق قرب الجامع عند الحلواني صانع المعمول صادفني صبي يعرفني. شاكسني وأراد مني أن أرافقه لنلعب معًا في السوق. ولكنني انصرفت عنه بتصميم ثابت. «أريد أن أذهب إلى المدرسة الوطنية»

(1) جبرا إبراهيم جبرا: (1920م - 1996م)، مؤلف ورسام وناقد تشكيلي فلسطيني، ولد في بيت لحم، وانتقل إلى العيش في العراق منذ عام 1948م حتى وفاته.

قلت وراوغته وركضت. وأنا أشعر في الحذاء الذي ألبسه مضايقةً لعينةً ولكن علي أن أتحمله وأعتاد عليه من أجل مدرستي الجديدة - إذا قُبِلْتُ فيها.

أُعجبت بالبوابة الحديدية الواسعة وقد علتها لافتة كبيرة كُتِبَ عليها بخط جميل: «مدرسة بيت لحم الوطنية» وملأني في الحال اعتزاز غريب بأنها تنتمي إلي وأنتمي إليها. دخلت متهيبًا إلى الساحة الأمامية وفيها أولاد يلعبون لم أعرف منهم أحدًا. اتجهت إلى المبنى وقد طُلِيَتْ أبوابه ونوافذه حديثًا بالأخضر فرأيت معلمين في جيئة وذهاب. وتشجعت بعد تلكؤ وسألت أحدهم: «أين المعلم جبور من فضلك؟» كان أخي قد أوصاني بأن أسأل عنه وأسلم عليه لأنه كان أحب المعلمين إلى نفسه وأذكر له من أنا.

جاء معلم طويل القامة في بدلة أنيقة يمشي هيِّنًا في الرواق وفي يده كتاب وقيل لي: «هذا هو المعلم جبور».

تقدمت منه مستحيًا وقلت ولساني يكاد ينعقد في فمي وقلبي يضرب ضلوعي بحدة: «أنا أخو يوسف إبراهيم».

وأدهشني أنه رد بحرارة: «أين هذا الشقي، المقصوف العمر؟لماذا لم يعد إلى المدرسة؟»

قلت: «إنه يشتغل الآن. وقد أرسلني إليك لتساعدني في دخول المدرسة».

نظر فيَّ بعينيه الزرقاوين، وأشعل سيجارة. ثم

قال «تعال» واقتادني إلى غرفة كتب على بابها «المدير». وإذا رجل ضامر أبيض الشعر يلبس نظارة ذات حواف معدنية واقف يتحدث مع التلاميذ. وكانت الشمس تملأ غرفته الصغيرة مما خفف عني لسبب ما رهبة اللقاء بذلك المدير الذي طالما حدثني عنه أخي وكأنه يتحدث عن شخص أسطوري.

قال المعلم جبور: فضيل أفندي هذا الولد أخو يوسف إبراهيم. أتذكره؟ كان الأول في صفه وكنت تنوي ترفيعه صف وصفين.

صرف فضيل أفندي التلميذ الذي عنده وأجاب بصوت رفيع: «أذكره، أذكره.... أين صار هذا الولد؟»

أجاب المعلم: «إنه الآن يشتغل. ليساعد أهله ولا شك. أرجو أن توافق على قبول أخيه عندنا؟»

تأملني بنظرة فاحصة وأنا لم أنطق بكلمة بعد ثم التقط كتابًا من منضدته وفتحه كيفما اتفق ودفعه إلي مفتوحًا وقال: «اقرأ من أول الصفحة!»

بشفتين جافتين قرأت ثلاثة أسطر أو أربعة، والمدير والمعلم يصغيان ويهزان رأسيهما. ثم قال فضيل أفندي: «يكفي يكفي».

ووجه كلامه للمعلم: «مثل أخيه؟»

فتبسم المعلم: «على الأرجح».

ـ «الصف الثالث؟».

ـ «معقول»

وفجأة استدار المدير حول منضدته وجلس وأخرج

من الدرج دفترًا وقلب بعض أوراقه ثم أخرج قلم الحبر من علبة وسألني: «ما اسمك؟»

قلت : «جبرا إبراهيم»

- «عال. وعمرك؟»

- «تسع سنوات»

سجل ذلك في دفتر ثم نهض وقال: «تفضل إلى صفك.. الصف الثالث». وكنت على وشك الطيران من الباب فرحًا، حين أوقفني عند العتبة قائلاً بصوت عال: «اسمع! شعرك ما زال طويلاً.. غدًا تأتي وقد قصصته بالماكنة مرة أخرى. سامع؟»

ورافقني المعلم جبور في الرواق المشمس على حافة حديقة صغيرة ارتفعت فيها أشجار الصنوبر ثم انعطفنا إلى رواق آخر توالت فيه غرف الصفوف وفي نهايته باب علق على حاشيته قطعة خشب صغيرة كتب عليها «الصف الثالث». أدخلني إلى غرفة كبيرة مليئة بالأولاد من كل الأعمار وعلى جدرانها خرائط كبيرة زاهية الألوان وفيها معلم شاب في يده كتاب إنكليزي - ذلك الكتاب قرأ لي فيه يوسف قصة علاء الدين والمصباح؟

- «فهيم أفندي هذا طالب جديد. هل لديك له مكان؟»

- «نعم. ليجلس هناك قرب شحادة».

لم أكن أعرف حتى تلك الساعة في كل ما ذهبت إليه من مدارس سوى المقاعد الطويلة التي يجلس على

كل منها خمسة أولاد أو أكثر. أما المقاعد هنا فيجلس عليها الأولاد اثنين اثنين. وكان بعضها خاليًا جلست في المكان الذي عينه لي المعلم فهيم وأنا شبه دائخ من الإثارة والهيبة والفرح، وخرج المعلم جبور وقد اطمأن إلى أنَّه سلَّمني ليدٍ أمينة ودفع شحاته كتابه المفتوح أمامي لكي أشاركه فيه وأنا لا أفقه شيئًا مما يقول المعلم. وعندما دق الجرس، وهم الأولاد بالخروج أشار المعلم إلي بالبقاء ريثما يخرجون.

سألني: «عندك كتب»

قلت: «لا»

قال: «طيب تعال معي»

وسرت برفقته إلي غرفة كُتِبَ على بابها «المخزن» وطلب إلى الرجل الجالس فيه إلى منضدة كبيرة كُدِّستْ عليها الكتب والأوراق أن يسلِّمني كتب الصف الثالث. وبعد قليل دق الجرس مرة أخرى وعاد الأولاد إلى صفوفهم وعدتُ أنا لأجلس قرب شحادة ومعي كتابان أو ثلاثة بالعربية والإنكليزية مع دفتر للرسم وآخر للخط شعرت أنها مفاتيح لأبواب هي حتمًا أبواب الجنة ولم يبقَ إلا أن أسرع إليها وأفتحها لأرى المذهلات التي لم تكن لتخطر لي يومًا على بال»[1].

(1) البئر الأولى، جبرا إبراهيم جبرا، ص. ص (124 ـ 127)، ط1، 2001م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

تشجيع الصغار

ولا شيء أنجع من التشجيع في الأخذ بأيدي التلاميذ ونفوسهم إلى مراقي النجاح، ومن أساليب التشجيع ما ذكره الإمام حسن البنا[1] عن أستاذه في مدرسة المعلمين بالإسكندرية، إذ يقول: «**ولا زلت أذكر أن الأستاذ عبد العزيز عطية، وقد كان يدرس لنا التربية العلمية، وقد أجرى لنا اختبارًا شهريًا فأعجبته إجابتي فكتب على الورقة أحسنت جدًا ولو كان هناك زيادة على النهاية لأعطيتك، وحجز الورقة بيده عند توزيع الأوراق، ثم طلبني وسلمها لي وزودني بكثير من عبارات النصح والتشجيع والحث على القراءة والدرس والمطالعة، واختصني بتصحيح (بروفات) كتابه (المعلم) في التربية الذي كان يُطبع إذ ذاك بمطبعة المستقبل بدمنهور**»[2].

ولم يختلف كثيرًا منهج الإمام حسن البنا مع

---

(1) حسن البنا: (1906م ـ 1949م) داعية مصري، مؤسس جماعة (الإخوان المسلمون) بمصر.

(2) **مذكرات الدعوة والداعية**، الإمام حسن البنا، ص 29، ط1، 2001م، ـ دار الدعوة، الإسكندرية.

تلاميذه، فهذا ما باح به أحد تلاميذه في مرحلة مبكرة، الدكتور علي الراعي[1]، الذي كتب مقالة نُشرت في مجلة العربي الكويتية عام 1998م قال فيها: «**كان (حسن البنا) رجلاً شديد الذكاء فصيح العبارة، ساحر الشخصية، وكان حفيًا بي بصفة خاصة، لما لمسه فيَّ من حبٍ للغة العربية وإتقانها، أذكر أنه دخل علينا الفصل ذات يوم وبدأ بندائه المألوف: أخرجوا كتب المطالعة وأقلام المتابعة، ثم قص علينا قصة الشيخ الفاني المشرف على الهلاك، الذي جمع أولاده، إلى جواره وأمر كلاً منهم أن يكسر عودًا من الخيزران فكسروه جميعًا بلا عناء، ثم أمرهم أن يضموا الأعواد على شكل حزمة، وطلب إليهم أن يحاولوا كسرها فلم ينجح أحد منهم، فتغنى الشيخ قائلاً:**

كونوا جميعًا يا بَنيّ إذا اعترى
خَطْبٌ ولا تتفرّقوا آحادا

ثم أمرنا الشيخ حسن أن نكتب موضوعًا إنشائيًا في هذا المعنى ولما قرأت له ما كتبت اهتز طربًا، فقد قلت: فلما مات الشيخ وواروه التراب... إلخ، فشاقه أن يعرف حدث مثلي هذه الكلمة (واروه).

وكان الشيخ حسن يُسهم في نشاط المدرسة

(1) علي الراعي: (1920م ـ 1999م) أحد أبرز النقاد المعاصرين في مصر.

الرياضي، مدرسة الإسماعيلية الابتدائية الأميرية، وطلب إليه أن يكتب كلمات لنشيد يلقى في حفل آخر العام الرياضي»[1].

(1) مجلة العربي، العدد (471)، فبراير 1998م، ص.ص (82 ـ 84).

ثناء بالشعر وتأنيب بالشعر

ويتحدث حسن البنا عن أستاذه محمد زهران صاحب مدرسة الرشاد الدينية فيقول: «رحم الله أستاذنا الشيخ محمد زهران صاحب مدرسة الرشاد الدينية، الرجل الذكي الألمعي، العالم التقي، الفطن اللقن الظريف، الذي كان بين الناس سراجًا مشرقًا بنور العلم والفضل يضيء في كل مكان... كان يدرِّس للعامة في المسجد ويفقه السيدات في البيوت. وأنشأ مع ذلك مدرسة الرشاد الدينية في سنة 1915م تقريبًا لتعليم النشء على صورة كتاتيب الإعانة الأهلية.. التي تعتبر دار علمٍ ومعهد تربية على السواء ممتازة في مادتها وطريقتها...

وكان للرجل أسلوب في التدريس والتربية مؤثر منتج، رغم أنه لم يدرس علوم التربية، ولم يتلق قواعد علم النفس، فكان يعتمد أكثر ما يعتمد على المشاركة الوجدانية بينه وبين تلاميذه، وكان يحاسبهم على تصرفاتهم، حسابًا دقيقًا مشربًا بإشعارهم الثقة بهم، والاعتماد عليهم.. ولا أزال أذكر بيتًا من الشعر كان مكافأة على إجابة في التطبيق أعجبته، فامر صاحب الكراسة أن يكتب تحت درجة الموضوع:

حسنٌ أجاب وفي الجواب أجادا
فالله يمنحه رضًا ورشادا

كما أذكر بيتًا آخر أتحف به أحد الزملاء على إجابة لم ترقه، فأمره أن يكتب تحت درجته:

يا غارة الله جدّي السّيرَ مسرعةً
في أخذ هذا الفتى يا غارة الله

ولقد ذهبت مثلاً وأطلقت على هذا الزميل اسمًا، فكنا كثيرًا ما نناديه إذا أردنا أن نغيظه «يا غارة الله». وإنما كان الأستاذ يوصي صاحب الكراسة بأن يكتب بنفسه ما يمليه عليه رحمه الله، لأنه ﷺ كان كفيفًا ولكن في بصيرته نور كثير عن المبصرين (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)...

لقد كنا نحب أستاذنا حبًا جما رغم ما كان يكلّفنا من مرهقات الأعمال، ولعلي أفدت منه ﷺ مع تلك العاطفة الروحية حب الاطلاع وكثرة القراءة، إذ كثيرًا ما كان يصطحبني إلى مكتبته وفيها الكثير من المؤلفات النافعة لأراجع له وأقرأ عليه ما يحتاج إليه من مسائل»[1].

(1) مذكرات الدعوة والداعية، الإمام حسن البنا، ص.ص (10 ـ 11)، مرجع سابق.

نور البصيرة

وعودًا إلى نور البصيرة، التي عوض الله بها أولئك الذين حرموا من نعمة البصر، فقد روى الدكتور زاهر الألمعي[1] عن أستاذه في معهد شقراء الشيخ صالح بن غصون إذ يقول: «**تتلمذت في معهد شقراء على مجموعة طيبة من الأساتذة الأفاضل وأذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر فضيلة الشيخ صالح بن علي الغصون: قاضي محكمة شقراء آنذاك والقاضي بهيئة التمييز بالرياض وعضو هيئة كبار العلماء حاليًا، وكان يدرس لنا مادة الفقه تعاونًا مع إدارة المعهد، وكان يلزم الطلاب بحفظ المقرر من متن زاد المستقنع، وهو من العلماء الأجلاء في فقه الكتاب والسنة وفي المذاهب الإسلامية، وكان كفيف البصر ولكنه ثاقب البصيرة مرهف الحس.**

في إحدى الحصص طلب الشيخ من الطلاب أن يستمع منهم الدرس حفظًا، وبدأ الدور، وكان أحد الزملاء

(1) د: زاهر الألمعي: (1354هـ ـ . . . . .) عصامي ألمعي شاعر، ترك الجندية واشتغل بالدراسة حتى أحرز الدكتوراه من الأزهر الشريف، تقلد مناصب عديدة، وأصبح عضوًا في مجلس الشورى السعودي.

في آخر الفصل ويبدو أنه لم يحفظ ففتح الدرج بخفية.... وأظهر الكتاب ليقرأ فيه فنهره الشيخ بشدة، وقال يا فلان أعد الكتاب إلى مكانه، وقد دهش الطلاب لهذا إذ لم يسمعوا أي حركة عند الطالب وإنما كانت محاولة، وفطن لها الشيخ في حينها»[1].

(1) رحلة الثلاثين عامًا، د. زاهر الألمعي، ص. ص (107 ـ 108)، ط2، 2002م.

نمط فريد من الأساتذة

وكما كان الأستاذ يمتدح طلابه بالشعر ويؤنبهم بالشعر، كان من الأساتذة من يختص النابغين من تلاميذه بالإشادة شعرًا؛ هذا ما حكاه الأستاذ أحمد الشرباصي[1]، عن أحد أساتذته[2]، ونقله لنا الدكتور محمد رجب البيومي فقال: «**لا تزال ذكرياته الطيبة تملأ نفوس تلاميذه. لأنه كان نمطًا فريدًا في سماحة النفس ورحابة الصدر وبذل العون المسعف، نادرة ودعابة فريدة هذا إلى أستاذيته الأدبية في فنه ومقدرته الشعرية ذات البديهة الحاضرة، أذكر أن صديقي الأستاذ أحمد الشرباصي قد خاض معي في سيرة أستاذنا الكبير، فقال فيما قال: إن العهد بالتلميذ أن يمدح أستاذه بقصائده ولكن الشيخ أحمد شفيع كان يمدح تلاميذه إذا رأى من بوادر النجابة في مناقشاتهم ما يدل على استعداد، ثم عرض عليَّ قصيدة**

(1) أحمد الشرباصي: (1918م ـ 1980م) شيخ مصري، أسندت إليه أمانة الفتوى في الأزهر الشريف.

(2) الأستاذ المقصود: هو الأستاذ أحمد شفيع السيد: (1903 ـ 1961 م)، عالم أزهري مصري، اشتغل محاميًا شرعيًا، ثم مدرسًا بالمعهد الديني (الزقازيق) ثم بكلية اللغة العربية (الأزهر) أستاذًا للبلاغة والنقد.

جيدة قالها الأستاذ في تلميذه أحمد الشرباصي، وفيها يقول عنه:

قبس من الإصلاح لاح بصيصه
سيزيده كر المدى إشعالا
وإذا رأيت الفجر يبسمُ ضوؤه
فارقب لأنوار الضحى إقبالا
فالبحر ماذا كان؟ كان جداولاً
والبدر ماذا كان؟ كان هلالا
والأُسدُ في وثباتها وثباتها
درجت على آجامها أشبالا»[1].

(1) من أعلام العصر، محمد رجب البيومي، ص 319، ط2، 1998م، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.

بين أحمد أمين وكتبه

وهناك أساتذة طبقتْ شهرة كتبهم الآفاق، حتى غلبتْ على طريقتهم في التدريس، فأصبح تلاميذهم ينتفعون بكتبهم فوق انتفاعهم بدروسهم، وهذا ما كان يشعر به الناقد عبد القادر القط، إزاء الأستاذ أحمد أمين، حين قال: **«الأستاذ أحمد أمين، كان عالمًا جليلاً، وكنا نستفيد من كتبه أكثر من استفادتنا من المحاضرة، لأنه كان هادئ الطبع، ربما يحتاج التدريس إلى نوع من الحيوية، وهو رجل يغلب عليه التأمل ونحن في سن التلمذة نحتاج إلى نوع من الحيوية. وربما كان أحمد أمين محتاجًا إلى طلاب أكثر نضجًا منا، لكننا كنا نستفيد من كتبه وبخاصة: فجر الإسلام، وضحى الإسلام»**[1].

---

(1) **عبد القادر القط.. ذكريات عمر،** عبد البديع عبدالله، ص (29 ـ 30)، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.

أمين الخولي[1]

ولهذا فمن الطبيعي أن يرضى عبدالقادر القط وزملاؤه عن أستاذهم أمين الخولي؛ لما يثيره فيهم من حيوية الجدل والنقاش، وهذا ما وصف به علاقته: «**كان الأستاذ أمين الخولي من أكثر الأساتذة إثارة للرغبة في الجدل. وهو كان يستفز طلبته ببعض العبارات التي تستثيرهم وتستثير قدرتهم على الجدل. لكنه كان يتقبل هذا بصدر رحب. صحيح أنه كان يزجر الطالب أحيانًا، لكن الطالب كان يدرك أنه زجر لا يراد به إلا نوع من إثارة الحمية وليس غضبًا حقيقيًا**»[2].

(1) أمين الخولي: (1895م ـ 1966م) من أعضاء المجمع اللغوي بمصر، عالم في اللغة والتفسير.

(2) **عبد القادر القط.. ذكريات عمر**، عبد البديع عبد الله، ص. (35 ـ 36)، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.

لقاء بنت الشاطئ[1] بأستاذها أمين الخولي

وعندما يتطرق الحديث إلى الشيخ أمين الخولي فلا بُدَّ من ذكر تلميذته الدكتورة بنت الشاطئ التي بلغ إعجابها بعلمه ومنهجه وشخصيته غايته، حتى ارتبطت حياتهما بصلة الأستاذ والمريد، ثم برباط الزواج الذي استمر حتى وفاة الخولي سنة 1966م، وبقيت بنت الشاطئ وفيَّةً له حتى لحقت به عام 1997م ومن حديثها عنه في كتابها (على الجسر) قولها عن أول درس حضرته له: «**ودخل (الأستاذ الخولي) بسمته المتفرد، فالقى علينا التحية واقترح لكي نتعارف، أن يعرض علينا مباحث المادة المقرر علينا درسها من علوم القرآن، ولكل طالب أن يختار مبحثًا منها، يعده ويعرضه للمناقشة في الوقت الذي يحدده.**

وبادرت فأعلنت اختياري للمبحث الأول، في (نزول القرآن).

(1) عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: (1913م ـ 1998م) عالمة باللغة والأدب والتفسير، لها كتابات في الشعر والقصة القصيرة، ولها كتابات عن المرأة في بيت النبوة.

وعندئذ سَرَتْ في القاعة همهمة ساخرة من هذه المبادرة الحمقاء، فتوقعت أن يحسمها الأستاذ بالمشهور من جده وصرامته، لكنه لم يلق إليها بالاً، واستطرد يعرض بقية المباحث، وأنا أتشاغل عن غيظي المكظوم، بالتفرج على عدد من الزملاء، في صراعهم المكشوف على المباحث الأخيرة، إرجاء للموقف الصعب.

وعاد الأستاذ يسأل كلّ طالب منّا، عن الوقت الذي يحتاج إليه في إعداد بحثه، فأجبت في عناد وشموخ:

ـ يكفيني يوم أو بعض يوم!

قال في نبرة إشفاق وتحذير:

ـ كذا!؟ فكرى مليًا، فربما بدا لكِ أنك في حاجة إلى مزيد من الوقت.

وأبيت أن أتراجع!

ولماذا أتراجع، ومبلغ علمي أن المادة مبذولة جاهزة، ومصادرها الأصلية في متناول يدي، فلن يحتاج الأمر معي إلى أكثر من بضع ساعات للمراجعة، وبضع ساعات أخرى للتنسيق والكتابة!

ولم يفتني أن الأستاذ يراني تورطت في هذا التعجل، فكأني خشيت أن يأخذ عني فكرة خاطئة، فقلت أسأله، مُدِلّةً بما أملك من ذخائر علمه:

ـ هل يكفي أن أراجع في موضوعي، كتاب (البرهان) للبدر الزركشي، وكتابي (الاتقان، واللباب)

للجلال السيوطي، مع الاستئناس بالسيرة الهشامية، وطبقات ابن سعد، وتفسير ابن جرير الطبري؟

أجاب:

- كتاب واحد منها يكفي الآن، لو أنك عرفت حقًا كيف تقرأين!

وكان هذا، آخر ما توقعت أن أسمع!

ألمثلي يقال ذلك، وما من كتاب من أصول العربية والإسلام يعييني أن أقرأه؟

وكبحت غضبي وأنا ألتمس للأستاذ العذر، فلعله يتصور أنني كغيري من الطلاب، وفيهم حقًا من لا يعرف كيف يقرأ!

- ما ذكرت هذه الكتب إلا لأني قرأتها واستوعبت ما فيها، وإنما كان سؤالي عن مصادر أجنبية، ظننت أن الأستاذ قد يضيفها إلى مراجعي!

فما زاد على أن قال:

- لو أدركت الفرق بين المصادر والمراجع، لما تورطت في مثل هذا السؤال المنكر!

وتحيرت لا أملك سؤالاً ولا ردًا، فما كنت حتى تلك اللحظة، قد فكرت في التمييز بين المصدر والمرجع..

وتابعت الإصغاء إلى الأستاذ، وهو يلقي علينا مبادئ منهجه، حريصة على ألا تفوتني كلمة واحدة مما يقول!

وبجهد مرهق، تشاغلت عن عالمي النفسي المائج بشتى الخواطر، لأعي ما أسمع، ولا شيء يزعجني غير دقات ساعة الجامعة، معلنة عن سير الزمن..

وكنت أتمنى لو توقف الزمن، ليظل الأستاذ يتكلم، وأنا أصغي وأتعلم!

من ذلك اللقاء الأول، ارتبطتُ به نفسيًا وعقليًا، وكأني قطعت العمر كله أبحث عنه في متاهة الدنيا وخضم المجهول.. ثم بمجرد أن لقيته لم أشغل بالي بظروف وعوائق، قد تحول دون قربي منه، فما كان يعنيني قط، سوى أني لقيته، وما عدا ذلك، ليس بذي بال!

وقد انصرفت من درسه الأول، في اليوم السادس من نوفمبر عام 1936 م وأنا أحس أني ولدت من جديد...

وما كان أشق الطريق بعد ذلك!

لقد ظننت حينًا أنني ما أكاد أصل إلى مرحلة الدراسة العليا حتى يهون الأمر عليَّ، إذ يصير لي حق اختيار المجال الذي أتخصص فيه وأفرغ له.

غير أني ما لبثت أن أدركت أن تلمذتي للأستاذ الخولي، جعلت ما فات من مصاعب الطريق، أهون من أن تقاس بما أستقبله منها.

كنت أشعر بالأستاذ الخولي معي، في كل ما أقرأ وما أكتب، فاخضع بهذا الشعور لرقابة عسيرة من صرامة منهجه وجبروت منطقه، فأطيل الوقوف عند كل كلمة، حتى ألمح سرها...

وحين أفضيت إليه بأنني في ريب من إمكان الوصول ببحثي إلى غايته، كان جوابه الذي ظل ملء مسمعي على طوال المدى:

- ومن قال إن الطالب يستطيع أن يصل بالبحث إلى غايته؟ نحن نعيش العمر كله طلاب علم، كادحين إلى ما نستشرف له في كل خطوة من جديد الآفاق والغايات. وما من بحث يمكن أن يقول الكلمة الأخيرة في موضوعه، وجهد طالب العلم لا يقاس بمدى ما قطع من أشواط، وإنما يقاس بسلامة اتجاهه، ولو لم يقطع سوى خطوة واحدة على الطريق الطويل الممتد إلى غير نهاية ولا مدى..

وهكذا كنت أجد لديه لكل معضلة حلاً ولكل سؤال جوابًا، فأشعر بالرضى عن نفسي إذ لم يخنها صدق الإلهام وسلامة الفطرة، فاتجهتْ بي إلى من أحس كلما لقيته أنني أولد من جديد، وأحس كلما جلست إليه وحضرت درسه، أن عالمي يرحب حتى لتضيق الدنيا عن أن تتسع له!»[1]

(1) علي الجسر: عائشة بنت الشاطئ، ص.ص (132 ـ 139)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، 2002م.

الأستاذ الذي لقَّب الرصافي[1] بهذا اللقب

ويكشف لنا الشاعر معروف الرصافي، سر نسبته إلى الرصافة، وسر لقبه (الرصافي) فيقول: «**أول من سماني بالرصافي أستاذي السيد محمود شكري الألوسي، وسبب التسمية أنه ألَّف كتاب (بلوغ الأرب في معرفة العرب) وطبعه في مطبعة أهلية تقع في سوق الجبقجية (في سوق السراي) تسمى مطبعة دار السلام لصاحبها علي أفندي، وعهد إليَّ تصحيح الكتاب، فكنت أذهب كل يوم إلى المطبعة لأصحح المسودات وبعد أن تم الطبع قرَّظته بعدة أبيات كانتْ مصدَّرة في مقدمة الطبعة الأولى للكتاب، وكتبت أسفلها اسمي (معروف) فلما اطَّلع الألوسي على قصيدة التقريظ أعجب بها وقال: اكتب بعد اسمك الرصافي، لأنك معروف الرصافة كما كان الكرخي معروف الكرخ. فلم أقبل فكتب الألوسي ذلك بخط يده، وبالرغم من**

(1) معروف الرصافي: (1875م ـ 1945م) أكاديمي وشاعر عراقي.

أني حذفت ذلك أثناء الطبع فإنه صار يناديني بالرصافي ويذيعه وينشره حتى غلب عليَّ»[1].

(1) الرصافي يروي سيرة حياته، د.يوسف عز الدين، ص.ص (116 ـ 117)، ط1، 2004م، دار المدى للثقافة والنشر، بيروت.

الأستاذة الأم سهير القلماوي[1]

وعلى طريقة بنت الشاطئ مع أستاذها الخولي يفرد الدكتور جابر عصفور لأستاذته الدكتورة سهير القلماوي مقالة نُشرت في مجلة العربي سنة 2002م فيقول: «**أدين لأستاذتي سهير القلماوي بأشياء كثيرة، ربما كان أولها أنها جعلتني أدرك أن المرأة لا تقل كفاءة عن الرجل في الأعمال المختلفة، أو مجالات العلم المتباينة...**

ازدادت الصلة بيني وبين سهير القلماوي بتعييني معيدًا في قسم اللغة العربية وبدأت أسعى لتسجيل أطروحتي الماجستير معها، واقترحت عليها أن أعمل في الإيقاع الشعري، فقالت لي إنها لا تحبذ أن أبدأ حياتي الجامعية بموضوع لا أمتلك الكثير من أدواته، واقترحتْ أن أنتقل من دراسة الإيقاع الشعري إلى دراسة التصوير في الشعر، وأخذت أعمل في الموضوع، وانتهى الأمر بتسجيلي رسميًا لدرجة الماجستير، واكتشفت في سهير القلماوي خلال ذلك الوقت أمًا حنونًا إلى جانب الأستاذة، فكانت أمي التي ذهبت لآخذ موافقتها عندما قررت أن

(1) سهير القلماوي: (1911م ـ 1997م) أكاديمية ومثقفة مصرية من جيل الرواد.

أخطب زميلتي التي أحببتها وأصبحت زوجتي وأم أولادي ورفيقة العمر إلى اليوم وشجعتني سهير القلماوي على أن أمضي فيما فعلت، بل قامت بدور الأم فعلاً، وكانت كذلك في حفل الزفاف الصغير الذي أقمناه، بل كانت الأم التي تلقت ابنتي الأولى التي أطلقت عليها ـ أنا وزوجتي ـ اسم سهير التي أصبحت أستاذة جامعية اليوم[1]، ولا تزال تذكِّرنا بأستاذتنا التي ندين لها بالكثير»[2].

(1) توفيت رحمها الله، عام 2007م، ولم تجاوز الثامنة والثلاثين.
(2) مجلة العربي، العدد (518)، يناير 2002م، ص.ص (108 ـ 110).

الأستاذ الذي ضرب مصطفى أمين[1] على وجهه

ويروي الأستاذ مصطفى أمين قصته مع أستاذه الشاعر أحمد رامي[2] في كتابه (أسماء لا تموت) فقال: «**كنت تلميذًا في السنة الأولى بمدرسة المنيرة الابتدائية، وذات يوم دخل الأستاذ أحمد رامي مدرس الترجمة، وبدأ الحصة بأن ناداني وراح يمتحنني في المعنى العربي لبعض الكلمات الإنجليزية. وأجبت على السؤال الأول والثاني والثالث والرابع إلى التاسع إجابة صحيحة وسألني الأستاذ رامي ما معنى كلمة FULL وأجبت على الفور: مجنون يا أفندي.**

وصاح الأستاذ رامي غاضبًا: معناها (مملوء) وليس (مجنونًا) يا حمار! ثم رفع يده وهوى بكفه على وجهي، وقفز طربوشي من أول الغرفة إلى آخرها. اسودت الدنيا في وجهي. رأيت نجومًا سوداء وحمراء

(1) مصطفى أمين: (1914م - 1997م) كاتب صحفي مصري شهير.

(2) أحمد رامي: (1892م - 1981م) شاعر مصري كتب بالفصحى والعامية، لُقِّب بشاعر الشباب.

تتراقص أمام عيني. أحسست بقوة الصفعة. تهاويت وكدت أسقط على الأرض. لكني تمسكت بيدي اليمنى بالمقعد واستندت إليه، وأخفيت مكان الصفعة باليد الأخرى والدموع تنهمر من عيني. كانت الصفعة مؤلمة. بقي مكانها محمرًا فوق خدي. عدت إلى بيت الأمة ـ حيث كنا نقيم ـ وذهبت إلى أمي وشكوت لها الأستاذ رامي. فقالت لي: إنني أستحق هذه الصفعة لأنني لم أحفظ الدرس. ذهبت إلى سعد زغلول[1] أناديه (يا جدي) ورويت له ما حدث. وتصورت أن جدي الذي يحبني سوف يسخط على الأستاذ رامي، ويهاجمه... وفوجئت بسعد زغلول يخذلني، ولا يثور ولا يغضب وإنما يبتسم ويقول: إن معنى ذلك أنك ستنبغ في اللغة الإنجليزية! وعدت إلى غرفتي في بيت الأمة باكيًا. رفضت أن أتناول العشاء...

ومضيت طول الليل أطلب من الله أن يأخذ الأستاذ رامي! يأخذه من مدرسة المنيرة الابتدائية.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت أنا وأخي علي[2] إلى مدرسة المنيرة. وحلَّتْ حصة الترجمة، ولم يحضر الأستاذ رامي. وبُهِتُّ أنا وأخي. إن الله استجاب إلى دعائي وأخذ الأستاذ رامي. سمع صلاتي وأخذ روح

(1) سعد زغلول: (1857م ـ 1927م) زعيم نهضة مصر السياسية، وأكبر خطبائها في عصره.

(2) علي أمين: (1914م ـ 1976م) من رواد الصحافة في مصر.

الأستاذ رامي. وسألت المدرسين أين الأستاذ رامي فقالوا إنه لم يأتِ بعد اليوم.. وسكتوا.. وتأكدت أن يد الله صفعت الأستاذ رامي! إن يد الله أقوى طبعًا من يد الأستاذ رامي. لا بد أن صفعة الله كانت قوية فقضت عليه قضاءً مبرمًا!

وعشت عدة سنوات وأنا أؤمن أن الله أخذ الأستاذ رامي انتقامًا لي.. وبعد أربع سنوات ذهبت مع والدي إلى صالة سانتي بحديقة الأزبكية لأسمع أم كلثوم[1]، وفوجئت بالأستاذ رامي على قيد الحياة، وفوجئت به يقف في الاستراحة وهو يداعب أم كلثوم وتداعبه وفي يدها دستة جاتوه.

ولاحظت أن رامي ليس العملاق الذي صورته لي الصفعة المؤلمة. كان رجلاً قصير القامة، رقيق الجسم، نحيف القوام، ليس فيه أي شبه بالمصارعين والملاكمين، وعلمت عندئذٍ فقط أن الله لم يأخذ الأستاذ رامي إلى جهنم.. وأن سر انقطاعه عن مدرسة المنيرة أن وزارة التربية والتعليم أوفدته في بعثة إلى باريس لدراسة اللغة الفارسية، وأنه بعد ذلك أصبح شاعر الشباب!

وأصبحنا الضارب والمضروب صديقين حميمين،

(1) أم كلثوم: (1898م ـ 1975م)، أشهر المطربات في مصر والعالم العربي.

وكلما كنت ألتقي برامي على مر السنين كنت أذكره بالصفعة فيضحك رامي ويقول: حذار.. أن تضربني الآن! إنني لا أحتمل الآن لطمة من إصبع!»[1]

(1) أسماء لا تموت، مصطفى أمين، ص.ص (273 ـ 276)، ط1، 1987م، العصر الحديث للنشر، القاهرة.

أثر المكتبة المدرسية

وكثيرون هم الذين يعزون الفضل في اتجاههم العلمي والأدبي إلى أساتذتهم في مراحل دراستهم الأولية، ومن أولئك الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي يقول عن أستاذه (حسن جوهر) وأثره في المدرسة الداخلية التي أقام فيها: «**أقام في الداخلية مُدرِّس جغرافيا كان قادمًا لتوه من بعثة بانجلترة، واسمه حسن جوهر.. كان مدرسًا جادًا، واسع الاطلاع، قد صقلت ذهنه إقامته في أنجلترة، وكان يؤثر العلم والتحصيل، ولهذا كان يؤثر الطلاب المجتهدين ويرعاهم رعاية خاصة. ولإيثاره للعلم والتحصيل أنشأ في قاعة صغيرة بالطابق الثاني من البلوك الذي يسكن فيه الطلاب الداخليون مكتبة صغيرة، ولكنها ثمينة لأنها كانت تحتوي على عددٍ من أمهات كتب الأدب العربي، وأخص بالذكر منها: كتاب (نفح الطيب) للمقري[1]، و(شرح سقط الزند) لأبي العلاء**

---

(1) المقري: (1578م ـ 1631م) مؤرخ، وصاحب كتاب **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، أحد أبرز المراجع المكتوبة حول الأندلس.

المعري[1]، و(الحماسة) لأبي تمام[2]، والمنتخبات الشعرية التي اختارها سامي البارودي[3]. وقد أقبلت على قراءة هذه الكتب بحماسة شديدة وخصوصًا في شهر رمضان حيث كنتُ أُكِبُّ على القراءة في هذه المكتبة الصغيرة بعد الإفطار مباشرة وأستمر حتى ساعة السحور. وكان الأستاذ حسن جوهر يجلس معنا في المكتبة أحيانًا، ويسأل عما نقرأ بلطف وتقدير. وليس من شك عندي في أنه كان لهذه المكتبة الصغيرة تأثير عميق في تكويني الأدبي، وبفضلها تدفق العزفُ الشعري عندي في نهاية سن الثالثة عشرة»[4].

(1) أبو العلاء المعري: (363هـ ـ 449هـ)، شاعر وفيلسوف عربي من العصر العباسي.

(2) أبو تمام: (188هـ ـ 231هـ) شاعر وأديب عباسي.

(3) البارودي: (1839هـ ـ 1904هـ)، شاعر وأديب مصري.

(4) **سيرة حياتي**، عبد الرحمن بدوي، ج1،ص. ص (33 ـ 34)، مرجع سابق.

تشجيع وتوجيه

وبهذا القدر من التأثر كان تأثر الدكتور غازي القصيبي[1] بأستاذه في مرحلة الدراسة المبكرة فنقرأ في كتابه (سيرة شعرية) قوله: **«لقد كان من أسباب تعلقي بالأدب التشجيع الذي لقيته من أحد مدرسينا في تلك الفترة، الأستاذ أحمد يتيم ﷺ، وكان قارئًا ذواقة يحب القصص ويجيد روايتها، وكان المشرف على النشاط المسرحي بالمدرسة، ولا تزال في مكتبتي حتى اللحظة قصص تلقيتها منه كهدايا تشجيعية في مختلف المناسبات»**[2].

(1) غازي القصيبي: (1940م ـ 2010م) شاعر وروائي ودبلوماسي سعودي.

(2) سيرة شعرية، غازي القصيبي، ج1، ص 17، ط2، 1988م، مطبوعات تهامة، جدة.

المعلم الموهوب

وعن مواهب معلمه (حسني كنعان) يقول الطنطاوي:

«وكان من معلمينا فيها شاب (أعني أنه كان يومئذ شابًا) من نابلس، هو أول من علمني الإنشاء العربي، كان يأخذ مقالات المنفلوطي[1]، فيجعلها بحيث نفهمها ثم يكلفنا أن نكتب مثلها، وكانت مزيته الأولى صوته، فما عرفت على ما سمعت من الأصوات، ما هو أحلى منه وأطرب، وقد أنشد يومًا في اجتماع عام نشيد (ويلي على أوطاني من غارة العدوان) أمام الشريف فيصل[2]، فأعجب به فجعله مدرس الموسيقى في السلطانية الأولى، ثم صار مدرسًا سيارًا لها، يدور على المدارس، فيكون يوم وصوله فرحة للمدرسة، وكان ممن ينظم الأناشيد العربية، أو يترجمها عن التركية ويلبسها النغمة الأصلية، وهو الأستاذ حسني كنعان»[3].

(1) مصطفى لطفي المنفلوطي: (1876م ـ 1924م) نابغة في الإنشاء والأدب، انفرد بأسلوب نقي في مقالاته وكتبه.

(2) الشريف فيصل: (1883م ـ 1933م) أول ملوك المملكة العراقية (1921م ـ 1933م) وملك سورية، (مارس 1920 ـ يوليو 1920).

(3) **الذكريات**، الشيخ علي الطنطاوي، ج1، ص54، مرجع سابق.

معلم الشام

ويتحدَّث الطنطاوي عن الشيخ عيد السفرجلاني فيقول: «أما الشيخ عيد فهو معلِّم الشام حقيقة لا مجازًا، ولقد كتبت عنه كثيرًا، وفي كتبي كلام طويل عنه، فقد لبث يعلِّم أكثر من ست وستين سنة، ولقد كان أبي تلميذًا لديه، ثم صار معلمًا عنده، وكنت أنا تلميذًا لديه، ثم صرت معلمًا عنده، ولقد رأيت في سجلات مدرسته اسم التلميذ ثم اسم ابنه ثم اسم حفيده، ثم اسم ابن الحفيد، على أربعة بطون...في هذه المدرسة بدأ التأثير الباقي في نفسي للأساتذة الذين حضرت دروسهم. أما الشيخ عيد فكان له أبقى الأثر فيها، وما كان يعلمنا ولا يلقي علينا دروسًا بل كان يلقي الكلمة، فيصيب حبات القلوب منا، وأنا قد نسيت أكثر ما سمعت من دروس المدرسة ولكن أمثال هذه الكلمات التي تأتي في موضعها وتقترن بمناسبتها لا تزال في أذني، وفي قلبي.

كان شيخًا كبيرًا، وكنا نتكوم حول مكتبه يبري لنا أقلام القصب، ويهدي لنا رسائل عليها خطه، وكان يُحسن الخط، ويحدثنا، فإذا أراد أن يؤدب واحدًا منا أخذ برأسه فحناه على صدره (صدر الشيخ) ثم أمسك بالعصى بجمع يده، إبهامه إلى أعلى، ثم ضربه على

ظهره ضربات لا تؤذي، وكان إذا شتم قال للمذنب: «يحرق بدنك»، ويضرب لنا الأمثال، فيقول: كونوا مستقيمين، ولكن استقامة (الحورة) أي شجرة (الحور) لا استقامة عمود الكهرباء، الحورة تميل قليلاً مع الريح، وتبقى على استقامتها، أما العمود (وكان يومئذ من الخشب) فإنه يعاند حتى ينكسر.

ولطالما حفظت أحاديث صحيحة، وأحكامًا فقهية، ووعيت نصائح وحكمًا، انتفعت منها في حياتي، كل ذلك من هذه الكلمات، فإذا دخل الغرفة المراقب، وكنا نسميه الناظر، وهو موظف لديه، وتابع له، قال ضاحكًا: لقد جاء فاهربوا»[1].

(1) المرجع السابق: ج1 ـ ص. ص (69 ـ 70)

الأستاذ العالم

ويتحدَّث الطنطاوي بإعجاب شديد عن الشيخ الكتاني فيقول: «**أما الشيخ الكتاني فقد كان آية في معرفة علوم الحديث، وكتابه العظيم الذي سماه ـ تواضعًا ـ (الرسالة المستطرفة) دليل هذا العلم الذي لا أعرف في هذا العصر ولا غيره من ألف مثله. وأحسبُ أنه أملاه إملاءً وكنا نحضر درسه فيقرأ معيد الحلقة، وهو السيد محمد الزمزمي.. ثم يأخذ الشيخ بالكلام عن رواة الحديث، واحدًا واحدًا، يذكر من وثقه ومن تكلم فيه، ثم يتكلم عن المتن كأنه يقرأ من كتاب، وذلك في هيبة ملك، وتواضع عابد، واطلاع عالم منقطع النظير، بلهجة مغربية حلوة**»[1].

(1) المرجع السابق: ج1 ـ ص77

الطنطاوي يغش في الامتحان

ويحدثنا الطنطاوي بعد ثنائه الذي أسبغه على أستاذ الخط عن موقف له نزل به في نظره فيقول: «**كتب (معلم الخط الأستاذ ممدوح) لكل واحد بقلم الرصاص السطور الثلاثة التي سنمتحن فيها، سطر الفارسي، وسطر الثُلث، وسطر الرقعة، ودعا كبار الخطاطين ومنهم نجيب هواويني، وكلفنا أن نمشي بأقلامنا على خط الرصاص، كأننا نحن الذين نكتب الحروف.**

وقد نلنا الدرجات العالية، وإعجاب المدعوين، ولكني أحسُّ إلى الآن بالخجل من مشاركتي في هذا الغش، وأشعر بأن المعلم صغر في عيني»[1].

(1) المرجع السابق: ج1 ـ ص.ص (100 ـ 101)

الأستاذ إلياس حماتي

ويأخذنا حديث الطنطاوي عن معلمه الخطاط إلى معلم آخر للخط هو الأستاذ إلياس حماتي، وهو الأستاذ الذي أشاد به جبرا إبراهيم جبرا فقال: «**وما علمني هذا الخطاط الفنان في تلك السنة عن الخط العربي فتح عينيَّ من ذلك اليوم على عالم من الرهافة في التكوين البصري ووصلني بحسٍ للكلمة المرئية أغنى كلاهما تجربتي الجمالية طوال سني حياتي فيما بعد**»[1].

(1) **البئر الأولى**، جبرا إبراهيم جبرا، ص 134، ط1، مرجع سابق..

المعلمة التي جعلت فدوى طوقان[1] شاعرة

وفي قصة فدوى طوقان مع معلمتها الأثيرة، أكبر دليل على تأثير الحب في نفس التلميذ، بوصفه شفيعًا للمعرفة، ودليلًا يبلغ بالتوجيه غايته، ولنقرأ مدى تأثر فدوى طوقان بمعلمتها: «**كنت أتعمد توقيت الذهاب إلى المدرسة في الصباح مع توقيتها الذي لم يكن يخطئ فأمشي إلى جانبها وأسعد بحديثها معي في الطريق معتزة أمام طالبات المدرسة برفقتي لها وبمبادلتها الحديث. هي أجمل المعلمات وأبرزهن شخصية ليس في المدرسة فحسب بل في البلدة كلها.**

كانت «ست فخرية الحجاوي» معلمة للغتين العربية والإنكليزية وأختًا بالرضاعة لشقيقي إبراهيم[2]، وكانت تسألني دائمًا عن أخباره وعن آخر ما نظم من قصائد.

---

(1) فدوى طوقان: (1917م ـ 2003م) أهم شاعرات فلسطين في القرن العشرين.

(2) إبراهيم طوقان: (1905م ـ 1941م)، شاعر فلسطيني، وهو الأخ الشقيق للشاعرة فدوى طوقان.

في ذلك الصباح الربيعي حدثتها عن قصيدة جديدة له كان قد تلاها علينا في المساء السابق وهناك قالت لي: لماذا لا تتعلمين منه نظم الشعر؟ إنك تملكين الموهبة ولا ريب في ذلك، فإلقاؤك للمحفوظات الشعرية يؤكد لي هذه الحقيقة أنك تحبين الشعر.

وبالرغم من أن ردة الفعل السريعة لدي كانت التعبير عن استحالة ذلك، فإن عقلي الباطن التقط الملاحظة العابرة بسرعة البرق واحتفظ بها في أعماقه الخفيه وهذا مما لا شك فيه فقد ظلت الفكرة تتحرك وتعمل عملها في لاواعيتي كدينمو لا يتوقف.

صرت أنام وأصحو على هذه الرؤيا. ورحت في يقظتي أرى بعين خيالي قصائدي التي لم أكتبها بعد منشورة في الصحف. تمامًا كما تنشر قصائد ابراهيم ورباب الكاظمي[1]..»[2].

(1) رباب الكاظمي: (1917م ـ 1998م)، شاعرة عراقية.
(2) رحلة جبلية.. رحلة صعبة، فدوى طوقان، ص. ص (74 ـ 75)، (ط4، 1999م، دار الشروق، عمان، الأردن).

سبب اشتغال العقاد بالأدب

ويتحدّث العقاد عن أستاذه أحمد الجداوي فيقول: **«كان أساتذتي جميعًا ممن اخترتهم بنفسي..نعم!.. ولكنني أحب أن أستثني أستاذًا واحدًا كان حضوري عليه من اختيار أبي لا من اختياري، وذاك هو الشيخ أحمد الجداوي** رحمه الله.. كان الشيخ أحمد من أبناء أسوان، وحضر العلم في الأزهر وزامل الأستاذ الإمام **«محمد عبده» على أيام السيد جمال الدين..**

كان هذا النابغة الألمعي أوسع من لقيت محفوظًا في الشعر والنثر، كان يطارح وحده خمسة أو ستة من القضاة والمدرسين والأدباء لاحظت عليه أنه لا يرى أمامه بابًا إلا تطرق إليه، ومن ذلك أنه تعلَّم اللغة الإنجليزية لأن مجلسه كان يجمع بعض الأدباء المحيطين بها...

وقد حبَّبتْ مجالسُ الجداوي الأدبَ إلى نفسي لأول مرة ورغبت أن أتخذه فنًا أضرب فيه بسهم، كما ضرب فيه الأستاذ، وصرت من ذلك الحين مهتمًا بحفظ الشعر، ومطالعة كتب الأدب»[1].

---

(1) **أنا**، عباس محمود العقاد، ص. ص (60 ـ 63)، منشورات المكتبة العصرية، د.ط.ت، بيروت.

تأثر التلميذ بأستاذه

وكم يبالغ التلميذ في التأثر والإعجاب بأستاذه، ولنقرأ ذلك بقلم الأستاذ أحمد أمين[1] عندما تحدَّث عن الأستاذ (عبد الحكيم محمد) الذي تعلم منه الكثير فيقول: **«أعظم ما كسبته في الإسكندرية، تعرفي بشخصية قوية، كان لها أثر كبير في نفسي.. كان أستاذًا للغة العربية في مدرسة رأس التين الثانوية، تخرج في دار العلوم، وكنت في الثامنة وكان في نحو الثانية والأربعين، وكان طويل القامة، معتدل الجسم جميل الوجه، ذا لحية سوداء، نظيفًا في ملبسه، أنيقًا في شكله من غير تكلف، اتصلت به فأعجبني من أول نظرة، واتخذني أخًا صغيرًا واتخذته أخًا كبيرًا... وكان في مدرسته محبوبًا محترمًا، يجله زملاؤه ورؤساؤه وتلاميذه، أبي النفس عزوفًا عن الصغائر، يعتمد في دروسه مع تلاميذه على الحب لا على الإرهاب، ويترك لهم الحرية في الحديث والنقد إلى درجة تشبه الفوضى، ولم يكن في درسه مدرس لغة**

(1) أحمد أمين (1878م - 1954م) عالم بالأدب، غزير الاطلاع على التاريخ، من كبار الكتاب المصريين.

عربية فحسب، بل مدرس تفكير ونقد للمجتمع، وما شئت من شؤون الحياة»[1].

(1) **حياتي**: أحمد أمين ص 60 ـ مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ـ ط7 ـ دون تاريخ.

شيوخ تمنى القرضاوي أن يعلموه

يذكر الشيخ القرضاوي معلمين فضلاء تمنى أن يفيد منهم، ولكن الأمر لم يكن بيده، فيُعَدِّد بعض فضائلهم وحسبهم أن يتمنى نجباء الطلاب الإفادة من عطائهم، فيقول:

«وقد كان في معهد طنطا شيوخ مبرزون في علمهم وطريقة تدريسهم، كانت لهم شهرة واسعة، وسمعة حسنة بين طلابهم، تمنيت أن أكون تلميذًا لهم ولو في سنة واحدة من سنوات الدراسة الخمس. ولكني لم أحظ بذلك.

من هؤلاء: الشيخ عبد الباسط سليم، الذي كان يدرس الفقه الحنفي، بطريقة حية يجذب الطلاب إليه، وتحبب إليهم الفقه على جفافه. وكان يحدثني عنه زميلي في السكن وبلديي كمال عبد المجيد المصري، الذي كان يسبقني بثلاث سنوات.

ولكن القدر لم يتح لي هذه الفرصة.

ومن الشيوخ الأقوياء في المعهد: الشيخ عبد الكريم جاويش، الذي كان مراقبًا للمعهد، وكان يدرس أحيانًا فيبدع ويجيد، ويتعلق به الطلاب»[1].

---

(1) ابن القرية والكتاب ـ القرضاوي ـ ص.ص (208 ـ 210) ـ مرجع سابق.

معلمو اللغة العربية والذائقة الأدبية

يشير نزار قباني[1] إلى مدى تأثير معلمي اللغة العربية ودورهم في تشكيل ذائقة تلاميذهم فيقول: **«إن مُدرسي اللغة العربية وآدابها يلعبون دورًا خطيرًا في فتح شهية الطلاب الأدبية، أو سدِّها، فمدرسٌ يجعل ساعة الأدب ساعة تعذيب واحتضار.. ومُدَّرسٌ يجعل المادة التي بين يديه حقل جلّنار.. يحول النصوص الجامدة إلى نزهة في ضوء القمر..»**[2].

(1) نزار قباني: (1923م ـ 1998م) شاعر وسفير سوري امتاز بشعره العاطفي والقومي، ولغته الشعرية الخاصة..

(2) **قصتي مع الشعر**، نزار قباني، ص 47، مرجع سابق.

المعلم المغرم بالإعراب

وللغة العربية بريقٌ وجاذبية يستطيع معلم اللغة العربية من خلالها اجتذاب التلاميذ، واستمالتهم بوصفها وعاء لفن يرقى بذوائقهم، ويكسبهم من ذائقته، وهذا ما يؤكده جبرا إبراهيم جبرا حين يقول: «**غير أن أهم من ذلك كله كان ما علمني إياه من لغة عربية المعلم جبور عبود. فقد كان لحبه للغة يعدينا بما يحب ولا يقصر درسه على «المقرر» لتلك السنة. لقد علمني قواعد اللغة في سنتين أو أكثر بقليل ما لم أتعلم من أحد سواه وما بقي أساسيًا حتى اليوم في تعاملي مع الكتابة. كان يهوى إعراب أبيات الشعر الصعبة وجعلت أجد مثله متعة في متابعة العلاقات المعقدة بين الكلمات وهي علاقات منطقية، عقلانية كالعلاقات الرياضية بين أجزاء المعادلات الجبرية. فإذا قال لي: «أعرب ما يلي:**

سائق الأضعان يطوي البيد طي

منعمًا عرج على كثبان طي».

وجدت لذة كبيرة في إعرابه. فيقول: «كان هذا بيتًا سهلاً. أعرب لي الآن هذا البيت إن كنت شاطرًا...».

ويملي علي بيتًا كله ألغام صرفية ونحوية فأحاول

الجواب على تحديه مفككًا الألفاظ واحدة واحدة لعلني أتحكم بسرها وإعرابها وهو يسعفني إلى أن أخلص بشكل ما من ورطتي»[1].

(1) **البئر الأولى**، جبرا إبراهيم جبرا، ص. ص (135 ـ 136)، مرجع سابق.

أول المدرسين تأثيرًا في غازي القصيبي

ولذلك فلا عجب أن يكون معلم اللغة العربية هو أول المؤثرين في شخصية القصيبي، والأخذ بيده نحو تذوق الأدب: **«كان المدرس الأول الذي ترك تأثيرًا بالغًا في حياتي مدرسًا شاملًا وأعني هذه الصفة حرفيًا. كان يدرس اللغة العربية، ويدرس التربية البدنية، ويدرس الأناشيد وربما درس الحساب. عندما ظهر في حياتي لأول مرة كنت في المدرسة الابتدائية. في الثامنة والتاسعة من العمر. لم يكن أستاذي يحمل شهادة جامعية، الحقُّ أنني أعتقد أنه لم يكن يحمل شهادة من أي نوع. في تلك الأيام الغابرة لم يكن المدرسون يوزنون في لجان الخدمة المدنية، ولم يكونوا يصنفون حسب الأوراق التي يحملونها. كان أستاذي عاشقًا حقيقيًا من عشاق الأدب. وتسرب عشقه إلى التمثيل، هوايته الأولى. كان ماهرًا في اقتباس المسرحيات، بارعًا في إخراجها، خبيرًا في اكتشاف المواهب المسرحية الصغيرة وتنميتها. كان يدرسنا ضمن ما يدرس مادة اسمها القصص خصصت لها حصة واحدة في الأسبوع. خلال**

هذه الحصة كان يروي لنا قصة من اختياره - وكان مجال الاختيار واسعًا لا تحده حدود قد تكون القصة رائعة من روائع التراث العربي وقد تكون قصة كلاسيكية من الأدب الإنجليزي أو الفرنسي أو الروسي وكان أستاذنا يروي القصة وكأنه هو مؤلفها وبطلها، وكنا نستمع إليه في نشوة لا تنقطع إلا بصليل الجرس الذي كنا نتمنى في هذه الحصة وحدها، لو أصيب بالشلل»[1].

(1) باي باي لندن..، غازي القصيبي، ص53، ط1، 2007م، مكتبة العبيكان، الرياض.

المعلم المثقف

ويذكره في موضع آخر مشيرًا إلى العلاقة الوطيدة التي نشأت بينه وبين هذا الأستاذ فيقول: «**كان مدرس اللغة العربية قارئًا موسوعيًا وكان اطلاعه على آداب اللغة العربية يدعو إلى الدهشة. سر الأستاذ بطالبه الموهوب وسرعان ما نشأت بين الاثنين علاقة تشبه علاقة الابن بأبيه يستمد الطالب/الابن منها الكثير من الثقة بالنفس والاعتزاز بالموهبة ويستمد المدرس/الأب منها الكثير من السرور المشوب بالفخر**»[1].

(1) المرجع السابق، ص57.

المعلم المتعمِّق

أما كمال الصليبي[1] فقد أحبَّ وزملاؤه دروسَ الدكتور أنيس فريحة[2]، لما تتسم به من العمق والإحاطة، والإدهاش، ويصف تلك المتعة التي يجدونها في دروسه فيقول: «**كان أحب درس إلي وإلى آخرين من رفاقي درس الدكتور أنيس فريحة نقرأ فيه روائع الأدب العربي. تخصص الدكتور فريحة في اللغات السامية بجامعة توبنغن في ألمانيا، ثم بجامعة شيكاغو، ولا يأتي على كلمة إلا ويحللها لنا فيلولوجيًا شارحًا لنا تاريخها اللغوي كاملًا، وبإحاطة مذهلة. وكان في صفه أن بدأت أعشق اللغة العربية وآدابها. أعلن في أول درس ألقاه علينا أن التثاؤب ممنوع في صفه (والصف يبتدئ في السابعة والنصف صباحًا ونحن بعد نصف ساعة نايمين) ثم أخذ يقرأ أسماء الطلاب واحدًا واحدًا إلى أن**

(1) كمال الصليبي: (1929م ـ 2011م)، أستاذ جامعي ومؤرخ لبناني. قام بأبحاث تاريخية عن لبنان والعالم العربي.

(2) أنيس فريحة: (1902م ـ 1992م)، أستاذ وباحث جامعي لبناني.

توقف عند اسم يوسف الشيراوي[1]: قال: «ما هذا الاسم العجيب؟» ثم استدرك موجهًا كلامه إلى يوسف مباشرة «الشيراوي من الشيرة، والشيرة هي السكر المعقود. جدك كان بياع قطايف»[2].

(1) يوسف الشيراوي: (1927م ـ 2004م)، شاعر وكاتب ووزير بحريني.

(2) **طائر على سنديانة،** كمال الصَّليبي، ص. ص (134 ـ 135)، ط1، 2002م، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن.

معلمة فدوى طوقان المحبوبة

وعودًا إلى فدوى طوقان وقصة حبٍ أخرى لمعلمتها، وإشارة إلى الدور الكبير الذي تركته المعلمة المحبوبة، في نفس التلميذة الرقيقة: **«كان يشتد خفقان قلبي كلما تحدثت معي معلمتي المفضلة (ست زهور العمد) والتي أحببتها كما لم أحب واحدة من أهلي في تلك الأيام. كانت جميلة، وجهًا وقوامًا، وكانت أنيقة، شديدة الجاذبية.**

كنت أرنو بشغف كبير وهي تشرح الدرس وتفسر لنا معنى قطعة القراءة، أو حين كانت تتلو علينا قطعة الإملاء. فقد كنت أكتب الفقرة ثم أرفع بصري في انتظار الفقرة التالية مسرورة بالنظر إلى وجهها. وكانت تقف أمام مقعدي الدراسي في الصف الأول الذي كان مخصصًا لأصغر تلميذات الصف سنًا وحجمًا. وحين كانت تضع أصابع يدها البيضاء على طرف مكتبي كنت أحس برغبة في لثمها.

فإذا انحنت نحوي لتنظر في دفتري اخترقت أحاسيسي رائحة عطر خفيفة كانت تنبعث دائمًا منها، وأتمنى لو بقيت بجانبي إلى الأبد.

فجأة انقطعتْ عن المجيء إلى المدرسة فقد مرضت

المعلمة المحبوبة. وطال مرضها وطال غيابها. وعرفتُ الوحشة، وذقتُ مرارةَ غياب الأحباب وثقل الانتظار.

كانت تقطن مع عائلتها في بيت بعيد معزول في منطقة (بليبوس) في الجانب الغربي من جبل عيبال. كانت شقيقتها الكبرى معلمة الصف (التمهيدي) في المدرسة وذهبت إليها برفقة بعض زميلاتي نستأذنها في زيارة ست زهور.

دخلنا البيت الصامت بتهيب ونحن نكتم أنفاسنا. وفي غرفتها تربعنا على مقعد أرضي أمام سريرها. وأخذت تمسح وجوهنا بعينيها الواهنتين وجهًا وجهًا. وحين صافحت عيناها وجهي ابتسمت لي. شعرت بقلبي يذوب حُزنًا. وكنت أغالب غصة البكاء في حلقي، أما الآن فقد غُلِبْتُ على أمري وأسرعتْ فواريثُ وجهي خلف زميلتي ورحتُ أبكي بصمت. كان موت «زهوة» معلمتي الشابة ثاني طرقات الموت على بوابة حياتي[1].

(1) رحلة جبلية.. رحلة صعبة، فدوى طوقان، ص. ص (52 ـ 53)، مرجع سابق.

خليل مردم بك: المعلم الشاعر

وفيما يشبه هذا نجد الشاعر نزار قباني يذكر أثر أستاذه الشاعر خليل مردم بك[1] فيقول: «**إنه لمن نعمة الله عليَّ وعلى شعري معًا، أنَّ معلِّم الأدب الأول الذي تتلمذتُ عليه، كان شاعرًا من أرق وأعذب شعراء الشام، وهو الأستاذ خليل مردم بك.**

هذا الرجل ربطني بالشعر منذ اللحظة الأولى، حين أملى علينا في أول درس من دروس الأدب مثل هذا الكلام المصقول كسبيكة الذهب:

إن الــتــي زعــمــتْ فــؤادكَ مــلًّــهــا
خُــلــقــت هــواكَ كــمــا خُــلــقــتَ هــوىً لــهــا
مــنــعــتْ تــحــيَّــتَــهــا فــقــلــتُ لــصــاحــبــي
مــا كــان أكــثــرهــا لــنــا.. وأقــلَّــهــا

واستمر خليل مردم يقطف لنا من شجرة الشعر العربي عشر زهرات جديدة في كل درس من دروسه، حتى كانت ذاكرتنا الشعرية في نهاية العام بستانًا يموج بالأخضر، والأصفر، والأحمر...

(1) خليل مردم بك: (1895م ـ 1959م) رئيس المجمع العلمي في دمشق، وأحد شعرائها، ولد ومات بها.

لقد جنَّبَنا هذا الشاعر الكبير، بذوقه المترف وإحساسه المرهف، السير على حجارة أكثر الشعر الجاهلي، ونباتاته الصحراوية الشائكة، ودلّنا على طرقات ظليلة، وواحات في الشعر العربي، أنستنا متاعب الرحلة...

ومن حسن حظي، أنني كنت من بين التلاميذ الذين تعهدهم هذا الشاعر المفرط في حساسيته الشعرية، وأخذهم معه في نزهاته القمرية، ودلّهم على الغابات المسحورة التي يسكن فيها الشعر..

إنني أدين لخليل مردم بك، بهذا المخزون الشعري الراقي الذي تركه على طبقات عقلي الباطن. وإذا كان الذوق الشعري عجينةً تتشكل بما نراه، ونسمعه، ونقرؤه في طفولتنا.. فإن خليل مردم كان له الفضل العظيم في زرع وردة الشعر تحت جلدي.. وفي تهيئة الخمائر التي كوَّنت خلاياي وأنسجتي الشعرية»[1].

(1) قصتي مع الشعر، نزار قباني، ص.ص (46 ـ 47)، ط6، 1982م، منشورات نزار قباني، بيروت.

خليل مردم بك مرة أخرى

وعن هذا المعلم الشاعر ذي الحسِّ المرهف، تحدَّثَ الأديب عبد الغني العطري[1] في كتابه(عبقريات من بلادي) قال: «**كان درس الأدب عندي أحلى الدروس. كنت أنتظره بفارغ الصبر. وكان أستاذ الأدب الشاعر الكبير خليل مردم بك، أحب أساتيذ المدرسة إليَّ. فعدا حبي وتعلقي بالأدب، كان خليل مردم بك مَثَلي الأعلى في لباقته، ووقاره واتزانه وأخلاقه الرفيعة، وحضور شخصيته، وسلوكه المثالي مع طلابه**»[2].

---

(1) عبد الغني العطري: (1919م - 2003م) أديب وصحافي سوري.

(2) **عبقريات من بلادي**، عبد الغني العطري، ص 455، ط1، 1996م، دار البشائر.

عبد الكريم الكرمي؛ المعلم الشاعر

ويتحدث الأديب والإعلامي الكبير ماجد الشبل[1]، عن أستاذه عبد الكريم الكرمي[2]، الذي يعتبره أهم معلميه، في المرحلة الابتدائية، فهو الذي تنبه لموهبته، وميزه بين أقرانه بسبب هذه الموهبة الشعرية ولجمال إلقائه الشعري، فيقول: «**لقد التقط موهبتي منذ البداية، وعرف بولعي الشديد للغة العربية، فأخذ يشجعني حتى الثانوية**»[3].

(1) ماجد الشبل: أديب وشاعر برز مذيعًا في التلفزيون السعودي، اشتهر بالفصاحةِ وجودة الإلقاء.

(2) عبد الكريم الكرمي، وشهرته أبو سلمى: (1909م ـ 1980م)، شاعر فلسطيني.

(3) **مجلة الإعلام والاتصال**، عدد (105) السنة (9)، غرة ربيع الأول 1428هـ، 20 مارس 2007م.

سعيد عقل(1): المعلم الشاعر

ويتحدَّث الأستاذ محمد علي شمس الدين(2)، عن أستاذه الشاعر سعيد عقل فيقول: «**حين كنتُ طالبًا في دار المعلمين في بيروت، وكان سعيد عقل أستاذًا للغة العربية وقتذاك. دخل المعلم إلى الصف، في أول درسٍ يلقيه علينا، كان أبيض أزرق العينين واسعهما، بجبين واسع وشعر مبعثر على الجبين، بقامة عالية وقليل من التجهُّم، حتى لا يكاد «يُكلِّم» «إلا حين يبتسمُ» كما قال الشاعر..**

دخل وجلس ساكتًا، كُنَّا بعد فتيانًا وكان فينا شيء من معابثة الفتيان، سكتَ سعيد عقل أمامنا وطال سكوته قليلاً، وما إن شرع أحدنا بالتململ، حتى ضرب الأستاذ بقبضة يده على الطاولة ضربات خفيفة، وقال وهو ينظر إلى نافذةٍ أمامه في الصف، فيها إناء ورد: «دقيتْ.. طلّ الورد ع الشباك..»

وأكمل إلقاء القصيدة التي غنتها فيما بعد

(1) سعيد عقل: (1912م ـ . . . .)، شاعر لبناني.

(2) محمد علي شمس الدين: (1942م ـ . . . .)، شاعر وأديب لبناني.

فيروز[1]، وكنا نحنُ، طلابه، أول من سمعها منه، قبل أن يسمعها أحد.

كان سعيد عقل معلمًا استثنائيًا.. هو بالفعل لم يدرسنا مادة الأدب العربي، كأستاذ عادي يسرد ويروي ويشرح، لقد علمنا في الحقيقة علم جمال الأدب بعامة، والشعر بخاصة»[2].

(1) فيروز: (1935م ـ . . .)، مطربة لبنانية، واسعة الشهرة.

(2) **مجلة دبي الثقافية**، العدد (42)، نوفمبر 2008م، ص 16.

حافظ الشعر ومدرس الأدب

أما الدكتور سهيل إدريس[1] فيفرق بين مدرس الأدب الجيد، وحافظ الشعر، الذي ليس بالضرورة مدرسًا جيدًا، جاء هذا التفريق في ذكره لأحد أساتذته بقوله: «**جاؤونا بمدرس الأدب العربي من دمشق يدعى الشيخ صالح الفرفور لم نلبث طويلاً حتى اكتشفنا أنه كان حافظ شعر لا مدرس أدب. وقد حضر درسه الأول في صفنا رئيس الكلية الشرعية الذي أراد الفرفور أن يدغدغ مشاعره فبدأ درسه بهذا البيت:**

فمن غطارفةٍ في جلّق نجُبٌ

ومن غطارفةٍ في أرض لبنان!

وهو لم يتورع عن الإشارة إلى نفسه لدى إنشاده الشطر الأول ثم أشار وهو يتلو الشطر الثاني إلى رئيس الكلية الذي ابتسم ابتسامة عريضة وخرج من الصف مسرورًا»[2].

(1) سهيل إدريس (1925م ـ 2008م)، هو أديب وصحافي لبناني، ومؤسس مجلة الآداب.

(2) **ذكريات الأدب والحب**، سهيل إدريس، ص.ص (43 ـ 44)، ط1، 2002م، دار الآداب، بيروت.

القصيبي رسامًا

وبما أن المعلم المحبوب يترك أعظم الأثر في نفس التلميذ، نجد المعلم البغيض المفتقد لأساليب التواصل الإنساني يهدم بكل اقتدار كل نوازع الإبداع في نفس التلميذ، ولنقرأ في هذا الصدد تلك المفارقة بين مجموعة من معلمي الدكتور غازي القصيبي: **«من الضروري أن أسارع فأقول إن موهبتي في الرسم منذ بدأت «أشخبط» على الورق في الرابعة أو نحوها إلى هذه اللحظة موهبة تكاد تكون معدومة. وكانت مادة الرسم أيامها مادة رئيسية تحسب ضمن مواد النجاح والرسوب. كان معدلي المنخفض في هذه المادة سببًا رئيسيًا في عدم تمكني من الوصول إلى المركز الأول في الفصل. ولعل المشرفين على المناهج، وقتها أدركوا أنه ليس من العدل أن يرسب طالب بسبب افتقاره إلى موهبة لا يد له في الافتقار إليها فرأوا أن تكون نسبة النجاح أربع درجات من عشرين درجة. وهذا الحد الأدنى كان بالنسبة لي في معظم الحالات الحد الأقصى.**

درسني هذا الأستاذ وكان فنانًا تشكيليًا معروفًا سنة واحدة فقط. خلال هذه السنة نجح في أن يزرع في نفسي الثقة التي كنت قد فقدتها في قدرتي على الرسم.

كان يقول لطلاب في العاشرة أو نحوها: إنه لا يريد منهم أن «يرسموا» ما يرونه أمامهم ولكن يريد منهم أن «يعبروا» عما يثيره هذا الشيء في نفوسهم. كان يقول: إن فن الرسم لا علاقة له من قريب أو بعيد بالتصوير وعدسات الكاميرا ولكنه وثيق الصلة بالمشاعر والأحاسيس. يا الله! كم بدت هذه المفاهيم تقدمية ثورية أيامها وأحسبها لا تزال تقدمية ثورية في هذه الأيام.

بفرحة من انطلق من قيد ثقيل انطلقت في دروس الرسم «أعبِّر» عما يجيش في نفسي. كانت النتائج أبعد ما تكون عن التقليدية وكان الأستاذ سعيدًا بها كل السعادة. كنت أيامها أوشك أن أبدأ رحلتي مع الشعر. ووجدت في الرسم قناة للتعبير عن المشاعر التي لم أبدأ التعبير عنها شعرًا. أحسبني في معادلة تختلف عن معادلة نزار قباني الشهيرة الرسم بالكلمات كنت أكتب الشعر بالفرشاة في تلك السنة قفزت درجاتي في مادة الرسم على نحو يعادل قفزات الثقة العائدة إلى نفسي إلا أن ذلك العهد السعيد لم يدم. انتقلت في السنة التالية إلى المدرسة الثانوية أيامها. لم تكن هناك مرحلة إعدادية حيث التقيت بمدرس جديد قتل نزعة الفن التشكيلي في أعماقي ببراعة عالية ومهارة راقية وقتها وإلى الأبد»[1].

(1) باي باي لندن..، غازي القصيبي، ص. ص (53 ـ 55)، مرجع سابق.

أستاذ الرسم المتحمِّس لفنه

كما نجد أثرًا كبيرًا لمعلم الرسم في الأستاذ جبرا إبراهيم جبرا، وما ذاك إلا أنه فنانٌ مؤمن بفنه، وهذا ما جعل جبرا يتذوق الفن ويشتغل بالرسم أمدًا بعيدًا: «**ومن أحب المعلمين إليَّ كان جمال بدران معلم الرسم. كان يتكلم بلهجة مصرية لم تفارقه سنين طويلة لدراسته في القاهرة ولا يكف عن الكلام وهو يرسم أو يصحح لنا رسومنا لشدة حماسه لفنه. علمني في شهرين أو ثلاثة عن أصول الرسم - وبخاصة قواعد المنظور والتظليل - ما بقي دليلي في دراساتي وأعمالي الفنية طوال سني حياتي. كان يجمع بين حب النكتة وحب النظام: وكانت له شهرة في حفر الزخارف على الجلد فقد جعلنا إلى جانب الرسم عن الجماد ندرس قواعد الزخرفة. فكنا نذهب بطلب منه إلى الحرم الشريف لننقل أجزاء من زخارف جدران قبة الصخرة ونعيد رسمها وإكمالها في دفاترنا بالخطوط والألوان**»[1].

(1) **البئر الأولى**، جبرا إبراهيم جبرا، ص 189، مرجع سابق.

يوسف وهبي[1] والمعادلات الرياضية

وهنا معلمٌ آخر كان أنموذجًا سيئًا لمعلمي الرياضيات الذين كانت علاقة القصيبي التلميذ بهم تشبه علاقته بمادة الحساب، التي لم تكن على ما يرام، وهكذا وصفها: **«كانت علاقتي بمادة الحساب وبعدها الرياضيات علاقة سيئة شبيهة بعلاقتي بمادة الرسم. لعلّه من قبيل المصادفة أنني لم ألتقِ بمدرس واحد من مدرسي هذه المادة لم يكن متخصصًا في التنفير من المادة. أيامها، كان أساتذة الرياضيات، في مجموعهم لا أفرادهم، يتصرفون وكأنهم كهنوت أئتمن على ألغاز وطلاسم مضنون بها على غير أهلها. ولعله من قبيل المصادفة أيضًا أن تفوقي في الأدب كان يثير ثائرة مدرسي الرياضيات سنة بعد سنة، سمعت من مدرس ذات يوم: «أجهل الناس هم المتعلقون بحبال الشعر» وسمعت من مدرس آخر إشارة ساخرة إلى مساهمتي النشطة في جمعية التمثيل: «أين يجد يوسف وهبي الوقت لكي يحل مسألة رياضية؟!. أعتقد أنه اتضح الآن، أن حبي لمواد**

(1) يوسف وهبي: (1898م ـ 1982م)، أحد الرواد في مجال السينما والمسرح المصري والعربي.

بعينها لا يمكن فصله عن إعجابي بمدرسي هذه المواد كما أن النفور بيني وبين مدرسي مواد أخرى مرتبط ارتباطًا عضويًا بنفوري من هذه المواد. هذه علاقة بين المدرس والمادة انتقلت إلى المرحلة الجامعية، بمراحلها الثلاث الليسانس والماجستير والدكتوراه»[1].

(1) باي باي لندن..، غازي القصيبي، ص 61، مرجع سابق.

المعلم الذي ينفخ الروح في التاريخ

وعلى النقيض من علاقة القصيبي بمعلمي الرياضيات نجد علاقته بمعلم التاريخ، التي انعكست بدورها على علاقته بمادة التاريخ حين يقول: **«وهناك مدرس ثالث أعزو إليه حبًا لم ينقطع قط هو حب التاريخ وكتب التاريخ على خلاف الطريقة التي ألفناها آنذاك وأحسبها لا تزال مألوفة لدى الطلبة في أيامنا هذه وهي حفظ التواريخ المقترنة بأسماء الخلفاء والمواقع الحربية جاء هذا المدرس بطريقة جديدة. كان حريصًا على أن يشرح لنا التاريخ باعتباره مسار حضارات لا سرد وقائع. لم يستخدم أستاذنا هذه الألفاظ وقتها، ولو استخدمها لما فهمها أحد ولكننا كنا نشعر بطريقة عفوية أن مادة التاريخ اكتسبت طعمًا شائقًا جديدًا لم نتذوقه من قبل.**

في تلك السنة المبكرة اكتشفت الحضارة الفرعونية وخصائصها والحضارة اليونانية وأسسها والحضارة الرومانية، وسماتها. لا أذكر الآن هل تضمن المنهج كل هذا أم أن أستاذنا كان يخرج عن النص ولكني أذكر أنه استطاع بالكلام تارة وبالرسم تارة، أن ينقلنا إلى تاريخ

مثير كالأساطير، رائع كالروايات. أحار الآن كيف استطاع مدرس في مدرسة أبتدائية اتباع هذا الأسلوب المبتكر في التدريس، ولا تزيدني الحيرة إلا إعجابًا»[1].

(1) المرجع السابق، ص. ص (55 ـ 56).

حبُّ المعلم يؤدي بالضرورة إلى حب المادة

وليس القصيبي بدعًا في حبه للتاريخ بسبب حبه لمعلم التاريخ، فهناك ما يُشبه الإجماع على أن حبَّ المعلم يؤدي إلى حب المادة التي يدرسها، والشواهد على ذلك كثيرة، تضمنت هذه الصفحات عددًا منها، ويؤيد ذلك ما حكاه سهيل إدريس عن أستاذه في الكلية الشرعية فقال: «**أحببت دروس القرآن التي كان يعلمنا إياها الشيخ محمد عمر الداعوق[1] الذي كان نموذجًا للأخلاق والعلم الصحيح، بخلاف الكثيرين من المدرسين المشايخ. وكان مدرس الحديث، الشيخ محمد العربي العزوزي، مضطرب المنهج، غائم التفكير، فلم يستطع أن يحبب إلينا الحديث النبوي الذي ظل الشك حول صحيحه وموضوعه يدور في عقولنا.**

وقد حفظت معظم القرآن، ولا أزال أصغي كل صباح إلى تلاوات منه.. وإذا كان في الدارسين من يجد

(1) محمد عمر الداعوق: (1910م ـ 2006م) داعية لبناني.

في أسلوبي بعض تماسك وفي لغتي بعض إشراق، فالفضل يعود إلى القرآن الكريم»[1].

---

(1) ذكريات الأدب والحب، سهيل إدريس، ص. ص (41 ـ 42)، ط1، 2002م، دار الآداب، بيروت.

موقف نبيل

ولا شيء يخلد في ذهن التلميذ قدر المواقف النبيلة التي يقفها معلموهم معهم، وربما يعود ذلك إلى أن هذه المواقف تكون مواقف نابعة من نفوس عظيمة، لأنهم لا يرجون من هؤلاء التلاميذ مغنمًا، وإنما يفعلونها بدافع المروءة، والنبل الفطري، والسجايا الراقية، وهذا ما يجعل التلاميذ يحفظونها لمعلميهم مهما امتد الزمن، ولهذا النبل والمروءة أمثلة كثيرة، منها ما رواه الدكتور محمد رجب البيومي عن أستاذه عبد الجليل عيسى، حين قال: «**فإني أحمل لهذا الأستاذ دينًا في عنقي لا أنساه فقد وقف معي موقفًا جريئًا، وتحمل عاقبة موقفه بقلب شجاع، ويقين صادق. وما أظن أحدًا أن يقوم مقامه في هذا الموقف النبيل.**

فقد قتل محمود فهمي النقراشي[1]. قامت الدولة باعتقال كل من ينتسب إلى الإخوان، بالكليات والمدارس وغيرها وكنت ممن يكتب أسبوعيًا بجريدة الإخوان فتوقعت أن يقبض علي، ووكلت أمري إلى الله وكان

(1) محمود فهمي النقراشي باشا (1888م ـ 1948م) رئيس وزراء مصري راحل.

توقيعي الأدبي على القصائد والمقالات باسم (محمد رجب البيومي) وهو الاسم الذي اشتهرت به أما اسم البطاقة المأخوذ من شهادة الميلاد والمؤرخ في كشوف كلية اللغة العربية فهو (محمد أحمد البيومي) وقد أرسلت الداخلية تسأل الكلية عن وجود محمد رجب البيومي بها وقرأ الأستاذ عبدالجليل رسالة الداخلية فأخذته الرحمة علي دون أن يكون لي به اتصال خاص، ثم استدعاني فورًا، وقال لي بلهجة أليمة يا بني لقد سألت الداخلية عن محمد رجب البيومي، وليس عندنا هذا الاسم وهو مخرج نتحلل به مؤقتًا فقد يفيد في انصراف الطلب عنك، وأنا أعلم أنك لست قاتلاً ولا سارقًا، ولا زانيًا، ولو كنت كذلك لما تسترت عليك، ولكني أعرف أنك شاعر تحب الإسلام وتنطق بفضائله، وهذه رسالة الأزهر التي أؤمن بها! وسأكتب بأن هذا الاسم غير موجود لدينا وعليك فورًا أن تذهب إلى قريتك فتتستر بها دون أن يعرف أحد بمقدمك إليها فيعلن وجودك، ولا تحضر إلى الكلية إلا يوم الامتحان بعد شهرين، وقد تكون الأحوال قد هدأت نوعًا ما، هذا ما أشير عليك به، والله المستعان.

كان ارتياعي من النبأ يخفف منه موقف الأستاذ، ويشعرني بإحساس جياش نحوه، وكله تقدير وإجلال، وقد سارعت بالذهاب إلى القرية ودخلتها في جنح الليل كي لا يراني أحد وأخبرت والديَّ بما يتهددني، فاتفقا على أن أقيم بالغرفة العليا من السطح وأن تظل الغرفة موصدة لا يدخلها أحد غير أمي التي تعد الطعام والشراب.

وأبي الذي يزورني بعد العشاء حين تسكن الشوارع في الريف بعد الصلاة، ومعي كتبي، وقد قامت والدتي من تلقاء نفسها بإحراق مجلات دينية كثيرة كانت تخصني ومن بينها مجلات الإخوان المسلمين، إذ علمت أن فرقًا من التفتيش تقتحم المنازل وتبحث عن الصحف والمجلات والمنشورات وتأخذ بأقل الشبهات، وكانت الخسارة العلمية فادحة لأني كنت أجمع أكثر ما يصدر من الصحف الأدبية والدينية، فلم تفهم الوالدة إلا أن الإبادة للأوراق إحدى سبل النجاة.

وجاء موعد الامتحان فسافرت ليلاً حيث لم يرني أحد وأخذت مكاني في قاعة الامتحان خائفًا أترقب. ودعاني الأستاذ عبد الجليل فقال ستمر العاصفة ويكون امتحانك الشفوي بتدبيري في أول يوم لترجع إلى القرية على وجه سريع! أليس هذا الموقف النبيل من مواقف المروءة والتكافل الإسلامي الحبيب؟»[1]

(1) ظلال من حياتي، محمد رجب البيومي، ص.ص (47 ـ 48)، ط1، 2005م، دار سنا الفاروق، جدة.

صلف المفتشين

وللمفتشين مواقف إيجابية كثيرة، ولكن لهذا اللقب ارتباطًا وثيقًا بالصلف، وعدم سماع رأي المعلم أو التلميذ، ذلك أن كلمة مفتِّش ربما أوحت بالدلالة على البحث عن الأخطاء وتضخيمها، وهذا ما دلَّت عليه مواقف عديدة، منها ما حكاه الدكتور محمد رجب البيومي؛ فقال:

«كان من مقرر النصوص الشعرية على تلاميذ السنة الأولى بالمدارس الثانوية، قصيدة مالك بن الريب التميمي في رثاء نفسه وهي قصيدة جيدة ذات شهرة بين الدارسين ولها تأثير نفسي لأنها تصور مشاعر إنسان يحتضر وقد عز عليه أن يفارق الدنيا فهتف بما تختلج به نفسه وكانت الأبيات المقررة على الطلاب لم تشمل كل ما قاله الشاعر بل اختار المسؤولون بعضها دون بعض وكأنهم لا يريدون أن يرهقوا التلميذ الناشئ بما يثقل عليه حفظه فآثروا الاختصار! والنص المقرر على الطلاب هو هذا:

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد
سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر خنذيذ يجر عنانه
إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيا

فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا
برابية إني مقيم لياليا
أقيما عليّ اليوم أو بعض ليلةٍ
ولا تعجلاني قد يبين ما بيا
وقوما إذا ما استل روحي فهيئا
لي السدر والأكفان ثم ابكيا ليا
ولا تحسداني بارك الله فيكما
من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذاني فجراني ببردي إليكما
فقد كنت قبل اليوم صعبًا قياديا
فقد كنت محمودًا لذي الزاد والقرى
وعن شتمي ابن العم والجار وانيا
فلا تنسيا عهدي خليليَّ إنني
تُقطّعُ أوصالي، وتبلى عظاميا
يقولون لا تبعد وهم يدفنوني
وأين مكان البعد إلا مكانيا
وما كان عهد الرمل منّي وأهله
ذميمًا، ولا بالرملِ ودّعتُ قاليا

ومن المصادفات أني كنت أحفظ القصيدة جميعها وأبياتها في بعض الروايات تربو على الأربعين ورأيت أن أضيف إلى ما اختارته الوزارة بعض الأبيات الجيدة التي تفصح عن مكنون الشاعر وتصور لوعته الدامية في موقف يجل عن العزاء ونبهت الطلاب إلى أن ما بالكتاب المدرسي هو الجزء الذي يجب حفظه

وأن ما أضيف إليه للدراسة الأدبية والمتعة الفنية فحسب.

ومما اخترته من مطلع القصيدة:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا
لقد كان في أهل الغضى لودنا
مزار ولكن الغضى ليس دانيا
لعمري لئن غالت خرسان هامتي
لقد كنت عن باقي خرسان نائيا
فلله دري يوم أترك طائعًا
بني بأعلى الرقمتين وقاليا
ودر الظباء السانحات عشية
يخبر أني هالك من ورائيا
ودر الهوى من حيث يدعو صحابه
ودر لجاجاتي ودر انتهائيا

ومما اخترته بعد الأبيات المقررة:

فيا ليت شعري هل تغيرت الرحى
رحى المثل أوضحت بفلج كماهيا
إذا القوم حلوها جميعًا وأنزلوا
بها بقرًا حمّ العيون سواجيا
رعين وقد كان الظلام يجنها
يسفن الخزامى نورها والأقاحيا

وقد أثبت ما قدمت وما أخرت في دفتر التحضير

مشروحًا مبسطًا ووضعت بعض الأسئلة المتعلقة به كالمعتاد! ولم أدر أن المفتش الفاضل سيأتي فيما بعد ويطالع دفتر التحضير ليتلمس المآخذ.

ثم حان اليوم القريب وجاء المفتش وطلب كراسة الإعداد (التحضير) وأعطيتها إياه وذهبت إلى المدرسة ولم أدر أن ثورة هائجة قامت به وداعيًا إليها من يجلسون في حجرة المدرسين ليشاركوه الرأي في هذا الخطب الداهم قال السيد الكبير: تعالوا يا قوم إن المدرس تجاوز النص المدرسي وأضاف إليه أبياتًا ركيكة مملة وأخذ يشرحها في وقت كان الطلاب في حاجة إلى ملئه بما يفيد! إن الذين اختاروا الأبيات المقررة من كبار المفتشين في الوزارة وقد قرأوا القصيدة جميعها واختاروا منها ما يفيد التلاميذ، ولكن المدرِّس الفاضل رأى أنه يفضلهم في الاختيار فيتبرع بإضافة ما حقه الإهمال ثم قال: سامحه الله تصوروا أنه اختار بيتًا يقول فيه الشاعر:

إذا القومُ حلّوها جميعًا وأنزلوا
بها بقرًا حُمَّ العيون سواجيا

أيكون للبقر مناسبة في شعر إنسان يرثي نفسه! هل كان من اختاروا هذه الأبيات أغبياء حتى يختاروا مثل هذا الهراء! أين المدرس لي معه حساب!

وما كدت بعد انتهاء الدرس أدخل حجرة التدريس

حتى وجدت الوجوه متطلعه إلي كمن وقع في تهمة خطيرة وحان وقت الحساب الشديد من أجلها ولم يمهلني السيد المفتش فتطلع إلي متسائلاً: ما هي حكاية البقر يا مولانا؟

دهشت لأني خالي الذهن تمامًا مما يدور في فكر المفتش وقلت: أي بقر تعني؟

فقال: البيت الذي شحنت به عقول التلاميذ وقدمته هدية للطلاب ولا علاقة له بالرثاء الخاص بمالك؟

وكانت الحجرة غاصة بالزملاء من رجال اللغة العربية والمواد الأخرى وكلهم على رأي المفتش إذ لا يجدون علاقة ما بين البقر وساعة الاحتضار؟ وأدركت أن الموقف يتطلب الإيضاح وأنا أعرف سلفًا أن زملائي الأفاضل يقدرون مكانتي العلمية على عكس المفتش تمامًا ويعلمون أن هناك لغزًا يجب أن يحل، لغزًا قد ابتدعه المفتش ابتداعًا وكان على ثقة تامة بصحة موقفه وصلابة رأيه!

فقلت للسيد المفتش أتسمح لي أن اوضح الموضوع للسادة الزملاء فقد يكونون بعيدين عن ملابسات القصيدة فقال لي: تريد أن تخطب تفضل!

فقلت إن البيت الذي انتقده أستاذي الجليل من عيون القصيدة وأشرح لكم ما أعنيه بإيجاز ثم اندفعت أقول:إن الإنسان في اللحظات الأخيرة من الحياة يتذكر أوقات السعادة التي مرت عليه ويصعب جدًا على نفسه

أن يفارقها إلى غير عودة والشاعر مالك بن الريب كان في ريعان قوته يذهب إلى مكان بناحية (الفلج) قبل أن يشرق الصباح ليرى النياق جاءت محملة بالغيد الحسان وقد نزلن رائعات زاهيات إلى المرج المعشب بالبادية فأخذن يقطفن الزهور من أقاح وورود ويشممن عبيرها الفواح وكأنها زهر يقطف زهرًا وعطر يضاف إلى عطر فصاح المفتش أين ذلك يا أخي؟ قلت: إن البقر هُنا هُوَ «المها» والعرب تشبه المرأة بالمهاة لجمال عينيها فالكلام ليس على حقيقته والسياق يحتم ذلك لأن الشاعر يقول (يسفن الخزامى ريحها والأقاحيا)، ويسفن بمعنى يشممن وأظن البقرة الحقيقية لا علاقة لها بالخزامى ولا بالورود فالكلام هنا يتجه إلى مشهد من مشاهد الحسن لم يترك تأثيره في نفس الشاعر طيلة حياته ومن يدري لعله كان يعشق فتاة من هؤلاء! فتذكرها وقد نزلت عن الناقة قبل الشروق والندى يتساقط ثم اتجهت إلى الورود والرياحين مع صواحبها فكان لمسيرهن مشهد أي مشهد ذكره الشاعر في ساعة الاحتضار!

أشرقت الوجوه حين فرغت من تفسير البيت. ولكن وجه المفتش قد اكتسى العبوس وأدار الحوار حول سؤال طرأ على باله هو: أيجوز للمدرس أن يختار أبياتًا من الشعر غير التي دونت في الكتاب المدرسي؟ وإذا صح ذلك فما فائدة الكتاب وما أثر الفوضى التي تترتب على ذلك؟

قلت في جرأة: أظنك الآن قد اقتنعت بأن تفسيرك (البقر) كان بعيدًا عن الصواب!

وأنا لم أختر قصيدة من عندي ولكن أضفت إلى القصيدة أبياتًا تقدم صورة تامة لما جال بخاطر الشاعر المحتضر من ذكريات فيمكنك أن تعدل السؤال إلى ما يلي: هل يجوز للمدرس أن يكمل قصيدة مختارة بما يعتقد أنها تمثل الصورة التامة للشاعر كما تضيء بعض المعاني الأصيلة التي عناها الرجل في أحرج الساعات فقال المفتش:لا يجوز لك أن تضيف شيئًا وساكتب إلى مكتب التفتيش بالوزارة ليقنعك بخطئك وأنا مسئول: ثم ساد السكوت ولم يشأ المفتش أن يكمل الدورة كالمعتاد بل بارح المدرسة إلى غيرها!

ثم جاء التقرير الخاص بالزيارة، فوجدته أعطى المدرسين جميعًا تقديرًا جميلاً وجعلني دونهم في التقدير ثم طلب المدرس الأول بعد أيام وأطلعه على رد من مكتب التفتيش بالوزارة يقول ليس للمدرس أن يختار قصائد غير المقررة في الكتاب المدرسي وطلبتُ منه أن يبلغني بما ردَّتْ به الوزارة فعلمت أنه كتب يسأل عن قصائد يختارها المدرس بنفسه! ولم يسأل عن تكملة قصيدة أضافها الأستاذ وهذا تدليس غير مقبول!

وكان رد المكتب ممهورًا بتوقيع الأستاذ إبراهيم البساطي كبير مفتشي اللغة العربية حينئذ فلم أستطع

السكوت وأنا أعلم أن الأستاذ البساطي رجل علم وفضل وهو الذي حقق كتاب (الإبانة عن سرقات المتنبي) تحقيقًا رائعًا فعرفت أين يقطن من شوارع القاهرة؟ وذهبت إلى زيارته ومن فضل الله علي أنه كان يقرأ بعض ما أنشر في مجلتي الرسالة والثقافة فاستقبلني مرحبًا وقمت بتلخيص ما كان بيني وبين المفتش وقلت إنك رددت عليه بما أيد موقفه وإنه ظلمني في التقدير إذ جعلني أقل زملائي حتى أصبحت موضع التندر فتأثر الرجل تأثرًا بان في وجهه الكريم وقال: أذكر أن رسولاً من بعض الإدارات كان خاصًا بضرورة الالتزام بالمقرر الدراسي فوافقت على ذلك، ولم يأت إلي ما ينبئ عما ذكرت! وسأدعو المفتش إلى مكتبي ليصحح الوضع ويبادر بإنصافك!

وجاء العام الثاني فرأيت الرجل يقابلني باحتفاء لا حد له، وقال إنه علم من الأستاذ البساطي كل ما كان وأنه في ساعة ضعف كتب التقدير متأثرًا بمجابهتي إياه قلت: يا سيدي أنا لم أجابهك إطلاقًا فأنا أعرف مكانتي منك ولعلك فهمت غير ما أقصد؟ قال ستأخذ هذا العام درجة الامتياز في التقدير لتمحو ما كان!

ودعاني إلى أن أسهر معه الليلة في بعض نوادي العاصمة فلم أخيب رجاءه وذهبت فوجدت النادي غاصًا بعشرات الزملاء ممن أرادوا الترحيب بمقدمه وقد قابلني

باشتياق وأثنى علي أمام الحاضرين فعرفت أن الحق قد عاد إلى نصابه! وأنها كانت سحابة صيف.

وأنا كثير المعاودة إلى كتب التراث الشعري القديم فما أذكر أني مررت بقصيدة مالك بن الريب التميمي في رثاء نفسه إلا ذكرتُ موقفَ المفتش مني. وقد تمنيتُ أن يمحى من الذاكرة ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه»[1].

(1) ظلال من حياتي، محمد رجب البيومي، ص.ص (87 ـ 93)، مرجع سابق.

مرارة الظلم

وإذا كان هذا نموذجًا لصلف المفتش مع رجب البيومي الأستاذ، فهناك قصةٌ أخرى، تحدَّثَ فيها عن مرارة الظلم الذي اقترفه المفتش بحق رجب البيومي التلميذ، وإليكموها كما رواها الدكتور محمد رجب البيومي: «**أذكر أني حفظت كتاب الله حفظًا جيدًا لا بمجهود المدرسة ولا بمجهود المكتب، ولكن بمجهود والدتي ورعاية والدي وهو قارئ حافظ، وقد أشيع في المدرسة ذات يوم أن أحد الأثرياء من تجار المركز (مركز المنزلة) قد تبرع بعشرين جنيهًا مكافأة لأحسن تلميذ في مدارس الإقليم يحفظ كتاب الله وشكره مجلس المديرية الذي كان يقوم على شئون هذه المدارس. وقرر أن تذهب لجنة (علمية) إلى كل مدرسة، فتمتحن من يتقدم للمسابقة، وتختار التلاميذ الفائزين المتقدمين ثم يتلو ذلك امتحان ثانٍ يجمع الفائزين في المدارس المختلفة ليختار المسئولون منهم واحدًا، على أن يضع كلٌ ممتحن الدرجات الخاصة به سرًا دون أن يطلع أحدٌ على تقدير أحد، وكانت المسابقة مجالاً لنشاط كبير في مكتب الشيخ وفي المدرسة أيضًا حيث اختير عشرة تلاميذ للامتحان وكنت أحدهم فجعل أولياء الأمور هذا الامتحان شغلهم الشاغل**

وأذكر أننا قضينا خمسة عشر يومًا في عمل متواصل، لا نكاد نستريح.

وجاء اليوم المرتقب، فحضرت اللجنة الممتحنة، يتقدمها السيد المفتش الذي أصبح مصدر فزع للمدرسة بسلوكه الشامخ، ودار الامتحان الشفوي لكل تلميذ على حده ابتداءً من الساعة الثامنة إلى الساعة الثانية عشرة، ثم انتهى الأمر باختياري ممثلًا للمدرسة وتلك هي الخطوة الأولى!

وبعد أسبوعين ذهب المتفوقون من المدارس إلى مدينة المركز وأجري لهم امتحان مماثل برياسة السيد المفتش نفسه، وأخذ كل ممتحن يضع الدرجة في ورقة خاصة به وعند الرجوع إلى ما دون من الأرقام وجِدَ رقمان متماثلان حازا أعلى الدرجات فحار الممتحنون فمنهم من أوحى بتقسيم الجائزة حيث يأخذ كل فائز جنيهات ومنهم من تشدد وقال إن صاحب التبرع قد حدد شخصًا واحدًا وقد اشترط ذلك فلا بد من تنفيذ رغبته ورئي بعد الجدل المتواصل أن يمتحن الفائزان مرة ثالثة ليقع الاختيار على الأفضل وحدد ميعاد الامتحان بعد أسبوع، وكنت أحد هذين!!

وأزفت الآزفة فذهبت في اليوم والساعة المحددين وكان المنتظر أن يبدأ الامتحان في الثامنة ولكن الوقت مضى وحانت الساعة الحادية عشرة وعلمنا أن عضوين تخلّفا ولم يحضر غير السيد المفتش وحده وقد اتصل بالمسئولين تليفونيًا في المنصورة، فقرروا أن يقوم

وحده باختبار أحد المتسابقين بعد امتحان دقيق ونودي عليَّ فوجدت الرجل يفتح المصحف الشريف، وينتقل بي من سورة إلى سورة قرابة ساعة ونصف، وأنا أجيب قدر المستطاع ثم أمر بانتهاء الامتحان ونودي المتسابق الثاني، فما راعني إلا أنه خرج بعد أقل من خمس دقائق وتعجبت فقلت له ماذا تم، فقال: سألني سؤالاً واحدًا وقال لي مبروك.

فغلى الدم في عروقي، ولم أجد بدًا من المواجهة الصريحة، فانتظرت حتى خرج المفتش متجهًا إلى الباب فقلت له في حدة أتمتحن الطالب في دقيقتين ثم تقول له مبروك: لو كنت ذكيًا لاستمر الامتحان ساعة، ثم أعطيته ما تشاء! فاصفر وجه المفتش، ونظر إلي في غضب وتركني!!

ذهبتُ باكيًا إلى والدي، وحدثته بما كان فقال يا بني إن الله لم يشأ لك الجائزة وما تشاءون إلا أن يشاء الله! ومن يدري لعل الله صرفها عنك منعًا لعيون الناس فقد أكثروا الكلام في المرة الأولى حين فزت في المدرسة وخافت والدتك عليك! إنس هذا الموضوع فقد صنعت كل ما تقدر عليه وهذا يكفي.

كان ذلك في سنة 1934م، ثم التحقت بالأزهر بعد عامين وتخرجت سنة 1950م وعينت بالمنصورة لقربها وقد غاب عن ذهني تمامًا موقف الامتحان القرآني فما خطر ببالي طيلة ستة عشر عامًا! وكنت أسكن في اللوكنده دار السعادة بالمنصورة لقربها من المدرسة

وبأسفلها مقهى يحمل اسم اللوكانده يجتمع فيه القاطنون بالدار وغيرهم، وفي ليلة ما نظرت في وجوه الجالسين فدهشت حين رأيت ملامح رجل تؤكد أنه المفتش تمامًا ولم يحل مرور الزمن دون تغير هذه الملامح كثيرًا فجعلت أسأل نفسي أهو؟ أم غيره ثم اندفعت إلى كاتب الفندق أسأله ألديه اسم زائر يعرف بتوفيق! وهو اسمه الذي أعرفه جيدًا لكثرة ترداده بين المدرسين إذ ذاك، فقرأ معي الأسماء وقال نعم وهو هذا وأشار إلى الأستاذ في مجلسه.

ولا أدري لماذا تملكتني رغبة شديدة في محادثته وكنت حديث عهد بالوظيفة وأعدها مصدر فخر لي! فحملت كرسيًا إلى منضدته وجلست مواجهًا له وأديت تحية القدوم في أدب ثم قلت له: أنت الأستاذ توفيق مفتش التعليم الإلزاميّ منذ زمن قريب! فتبسَّم وقال نعم؛ أتعرفني؟

قلت له: كيف لا أعرفك وقد ظلمتني دون حق! فبان الدهش على وجهه وقال لم أظلم أحدًا يا بني.

قلت أتتذكر التلميذ الصغير الذي امتحنته مع زميل له بالمنزلة في القرآن الكريم ومكث أمامك ساعة ونصف وامتحنت زميله في دقيقتين وقلت له مبروك! ثم قابلتك عند الخروج وقلت لك لو كنت ذكيًا لاستمر امتحان التلميذ ساعة ثم تقول له مبروك!

أطرق الرجل إلى الأرض وبان من ملامحه أنه يريد أن يبكي، وقال لي: والله يا ولدي لم أنس كلمتك هذه أبدًا،

وكنت أقول في نفسي تفضح موقفك أمام ولد صغير!

وأعض على شفتي! لقد أجبرني أحد أعضاء مجلس المديرية وعقد حولي حصارًا ليلة الامتحان وباحتياله تأخر العضوان الزميلان ولم يحضرا وقد علمت فيما بعد! ثم كان هذا الموقف شؤمًا عليَّ إذ لم يصلح لي حال في وظيفتي! لقد نقلت إلى التدريس بالمدارس الثانوية وفي كل عام تنطبق علي شروط التقدم إلى امتحان الترقية إلى وظيفة المدرس الأول فكنت أتقدم وينجح غيري وأتخلف وأنا أقول في نفسي: هذا عقاب سماوي أنزله الله بك جزاء ما قدمت. كل عام أذكره يا بني وقد امتنعت عن بلاء الامتحان وقبلتُ أن أكون مدرسًا فقط منعًا للكسوف.

ثم سكت كالمتألم وأدركت مقدار أسفه فلم أشأ أن أرجع إلى الموضوع وكأنه أراد أن ينقل الحديث إلى ناحية أخرى فسألني: وماذا تصنع الآن؟ قلت أنا مدرس بالمنصورة الثانوية لأني كنت الأول بمعهد التربية العالي والأول يعين فورًا بالمدارس الثانوية وقد تلكأت الوزارة معي نصف عام، ثم صحَّحَت الوضع!

فنظر الرجل كالمتحير، وقال تتخرج من المعهد ثم تعين بالمدرسة الثانوية، ونحن لا نبالغ ذلك إلا بعد عشرين عامًا في المدارس الابتدائية!

قلت: ذلك ما كان!

وامتد حديث الأستاذ فذكر أنه جاء إلى المنصورة ليسوي حالة المعاش إذ ليس أمامه سوى شهور بسيطة، وقد مل العمل ثم عرض علي طلبًا سيقدمه إلى المنطقة

في الغد وقرأت ما كتب فوقفت على خطأ نحوي لا يقع فيه مثله! فقلت: إن الطلب لابد أن يكتب من جديد وأشرت إلى موضع الخطأ البارز! وكان الرجل قد استحى فسكت ثم قال: اكتبه أنت بأسلوبك! لقد مضى عصرنا يا بني! فصدعت بما قال، وأحضرت الورق والقلم وكتبت!

ولم أشأ أن أتركه بعد أن أنس بي وأنست به فصحبته إلى المنطقة التعليمية في الصباح وكان المسئولون جميعًا من زملائه سبقت بهم الترقية وتعدته فقابلوه باحترام كبير وتحلقوا حوله جزاهم الله خيرًا وأسرعو في تلبية رجائه على أحسن ما يكون من الوضع الحالي! فكان في استقبالهم الطيب شفاء لنفسه وبلسم لجرحه ورجوه أن ينتظر مستريحًا في منزلةٍ وسيصله كل شيء بالبريد دون أن يكلِّف نفسه زيارة ثانية! وخرجنا معًا فرأيت أن أزيد في سعادته فقلت له: إن مكانتك معروفة وأنت موضع التقدير والتجلة من المسئولين يعترفون بفضلك وهذا وسام لامع على صدرك فلا تأسف على شيء.

أصررت على أن أحمل حقيبته نيابة عنه حين توجه إلى القطار وودعته توديعًا صادق الحس، وحين وقفت أمام القطار وهم بالركوب انحنى على رأسي فقبلني وأسرعتُ إلى يده فقبلتها!»[1]..

---

(1) ظلال من حياتي، محمد رجب البيومي، ص.ص (22 ـ 27)، مرجع سابق..

المفتِّش الذي شكك في قصيدة القصيبي

وهذا تلميذ آخر يتعرض لظلم مفتش آخر، ولكنه ظلمٌ دافعه الصلف والكبر على الحق هذه المرة، فقد بقيت مرارة هذا الموقف تلازم القصيبي حتى أنَّه لم يكتفِ بروايته في مقالاته وكتبه، بل أعاد روايته بشكلٍ مقارب على لسان فؤاد الطارف بطل روايته (شقة الحرية)، ثم رواها فيما بعد في محاضرة بعنوان: (مدرسون في حياتي) فقال: **«ذات يوم هبط على الفصل مفتش «مملوء بنفسه»** كما يقول **التعبير الإنجليزي. وأسرع المدرس يعرض عليه القصيدة مزهوًا بطالبه الشاعر. بدأ المفتش يقرأ القصيدة وملامحه تتجهم وتكفهر. كنت أتساءل بيني وبين نفسي: «هل الشعر رديء إلى هذه الدرجة؟. إلا أن المسألة كانت أخطر وأدهى وأمر. طلب مني المفتش أن أذهب معه ومع المدرس إلى غرفة أخرى. هناك اتهمني بسرقة القصيدة وطلب مني أن أعترف بالسرقة وأوضح من أين سرقتها، ووعد أن ينتهي هذا الموضوع عند هذا الحد. قلت إني كتبتها بنفسي. فلم يزده الجواب إلا غضبًا، وسرعان ما تحول الحوار إلى امتحان. سألني عن اسم البحر، وسأل عن تفعيلاته، وطلب مني أن أقطع الأبيات حسب التفعيلات.**

فعلت كل هذا بسهولة، وعندما انتهى الامتحان كان المفتش في حالة يرثى لها من الغيظ وطلب مني ومن المدرس مغادرة الغرفة. لم يقل مدرسي شيئًا خلال هذه المواجهة العجيبة، ولكنه كان يحمل في عينيه نظرات حزينة تغني عن آلاف الكلمات»[1].

(1) باي باي لندن..، غازي القصيبي، ص. ص (59 ـ 60)،

هكذا يكون الاعتذار

هكذا حظُّ المبدعين في أول عهدهم بالكتابة، لا يعدمون من يُشكك في نسبة إبداعهم إليهم، وهذه قصة مشابهة بطلها الدكتور محمد رجب البيومي، وأستاذه الدكتور عزت راجح[1]، حيث ذكر قصته في معرض الوفاء والإشادة فقال: «**ولي مع الأستاذ الدكتور عزت راجح موقف دل على فضله وتشجيعه. فقد قرر على الطلاب عدة بحوث يقومون بإعدادها، وحدد لكل طالب بحثه الذي يجب أن ينتهي منه في شهرين لترصد درجاته قبل ميعاد الامتحان حيث لا يجوز لمن رسب في مادة البحث التربوي أن يدخل امتحان الدور الأول وكان من نصيبي أن آخذ بحثًا عنوانه (اللعب وأثره في تربية الطفل) وقد اهتممت بالأمر وعكفت على كتب المكتبة التربوية لأقرأ ما يصل إلى يدي خاصًا باللعب. وكانت بالمكتبة مؤلفات خاصة بهذا الموضوع ومؤلفات أخرى تشمل فصلاً عنه، فاستطعت أن أكتب بحثًا مستوفى يشمل كل الجوانب**

(1) أحمد عزت راجح: (1908م ـ 1980م). من علماء النفس المصريين، وكان يشغل منصب أستاذ علم النفس بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

الهامة، وحين قرأه الدكتور راجح أحضره معه في قاعة الدرس وسأل عن اسمي فوقفت بين الزملاء فقال لي: قل الحق ولا تكذب من أين جئت بهذا البحث! إنه ليس بحث طالب مبتدئ! لقد قرأت مراجع كثيرة فلم أهتد إلى موضع بحثك هذا وهو ليس من نتاجك بكل تأكيد، وتحيرت ماذا أقول ولكن زميلي الأستاذ عبد المقصود ناصف ﷺ نهض في القاعة يقول بصوت مرتفع: يا سيدي إن الأستاذ رجب البيومي من كتاب مجلتي الرسالة والثقافة، واسمه يأتلق مع أسماء العقاد والزيات وأحمد أمين وكبار الكتاب في المجلتين! فكيف تتهمه بالسطو على بحث في اللعب! نظر الدكتور راجح إلي، وقال بعد تفكير! إن البحث لا يكتبه غير أستاذ متخصص وسأنشره في مجلة التربية باسم صاحبه، والمجلة تدفع خمسة جنيهات لكل بحث ينشر! وهذه هي الخمسة، وأخرج من جيبه ورقة مالية بالمبلغ فاحترت مندهشًا، وقام من فوره إلى حيث أقف وأعطاني الورقة بين تصفيق الزملاء! وخمسة جنيهات في عام 1949 كانت ذات شأن كبير!»[1].

(1) ظلال من حياتي، محمد رجب البيومي، ص51، مرجع سابق.

إجازة مقابل سؤال

وهذه قصة أخرى وصورة من صور التشجيع، والتقدير للمتميزين من الطلاب، تدفعهم إلى تقدير ذواتهم، والاستمرار في مراقي النجاح، يقول الدكتور محمد رجب البيومي: «...**كما أن عميد الكلية في بعض سنواتها كان فضيلة الأستاذ الكبير ابراهيم الجبالي[1]، وهو عضو هيئة كبار العلماء وممن ساد لهم ذكر في مجال التفسير القرآني إذ كان يتولى تحرير باب التفسير بمجلة الأزهر تسع سنوات فصدر عن ذاتية ممتازة في الاتجاه وتعميق دقيق في الرأى وسلاسة رائقة في التعبير حتى صار التفسير نموذجًا من نماذج البيان، هذا الرجل الكبير كان لا يسمح لطالب أن يتاخر يومًا واحدًا دون عذر يفحصه شخصيًا ويقتنع به وكان من عادته أن يتقدم الطالب مبديًا عذره ليتعرض لامتحان علمي في بعض المقررات فإن أجابه فعذره مقبول وإلا فلا سبيل للاعتذار وقد كتب لي والدي ذات يوم أنه سيحضر إلى القاهرة في موعد**

(1) الشيخ إبراهيم الجبالي: (1904م - 1950م)، شيخ مصري أزهري، كان شيخًا لبعض المعاهد الدينية، ثمّ شيخًا لكلية اللغة العربية.

حدده. وعلى أن أكون في استقباله بباب الحديد فرأيت أن أذهب للأستاذ معتذرًا عن التأخير وكان مجلسه ساعتئذ عامرًا بالأساتذة فتطلع إلي وسألني أن أجلس لأعرب له قول الفرزدق:

وكل رفيقي كل رحل وإن هما
تعاطى القنا قوماهما أخوان

وكان من حظي أن أحيط بالبيت من قبل فابتسمت وقلت يا سيدي: سأعرب البيت كما تود، ولكن سأسألك بدوري عن قائله، وعن مناسبته، وعن أحد الأئمة الذي أخطأ في إعرابه من كبار النحاه فائتلق وجه الشيخ بالنور كأنه يستمع إلى بشرى سعيدة وقال الله أكبر يا بني ما دمت تعرف أن ابن هشام قد أخطأ في إعرابه في كتاب المغني فأنت على علم به أما القائل وأما المناسبة فأنا لا أعرفهما، لقد جئت بآبدة، لقد جئت بآبدة!! وكان الشيخ محمد الطنطاوي أستاذ النحو بين السامعين فقال: إن الطالب من كتاب مجلة الرسالة، فنهض الرجل من مكانه محييًا وقال: اذهب كما شئت دون اعتذار لأنني أحرص على حضور المتعلمين لا العلماء»![1]

(1) من أعلام العصر، محمد رجب البيومي، ص378، ط1، 1996م، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.

استقرار المعلم النفسي ينعكس على تعامله مع طلابه

وعلينا أن نقدِّر الوضع النفسي الذي يعيشه المعلم، وعلى الجهات التي تشرف على عمله أن تراعي هذه الناحية، وأن توفر له الراحة النفسية، وأن تخفف من الأعباء الملقاة على عاتقه، فهي تنعكس على أدائه، وعلى علاقته بطلابه، ولننظر للأثر السيئ الذي تركه القلق وعدم الأمان على الأستاذ ذو النون أيوب[1]، ما انعكس على تلاميذه الذين كان منهم عبد الوهاب البياتي[2]، الذي روى لنا هذه القصة عن أستاذه فقال: «**عندما كنت أنا وغائب طعمة فرمان[3] طالبين في المدرسة المتوسطة كان الأستاذ ذنون أيوب يدرسنا الرياضيات وكان دائم العبوس والتجهم والعصبية وأذكر أنه سألني ذات يوم وعندما تلكأت في الإجابة صفعني صفعةً قويةً وأوقعني أرضًا لكني تماسكتُ ونظرتُ إليه نظرة تحد وعناد فما**

---

(1) ذو النون أيوب: (1908م ـ 1988م)، كاتب وناقد عراقي.

(2) عبد الوهّاب البياتي: (1926م ـ 1999م)، شاعر وأديب عراقي.

(3) غائب طعمة فرمان: (1927م ـ 1990م) روائي عراقي.

كـان مـنـه إلا أن تـراجـع إلـى الـوراء، وأدرك أنـه ارتـكـب حماقة لا ضرورة لها.

قمت من الأرض وعدتُ إلى المقعد الذي أجلس عليه وظل هو واقف في باب الصف حائرًا ثم اقترب مني وقال أنه يعتذر عما بدر منه.

كان معظم الطلبة لا يحبونه لأنهم كانوا عرضة لصفعاته المستمرة ولكنني كنت أحس أن وراء هذا الرجل الضخم الجثة قلبًا رحيمًا ينبض بحب الإنسانية وأعتقد أن سلوكه هذا في تلك السنوات كان يعود إلى أن الشرطة كانت تراقبه وتحصي عليه أنفاسه ليل نهار كما أنه كانت له خلافات مع بعض القوى السياسية وكان يحس الحصار الدائم وهذا ما قاله لي أيضًا بعد أن مرت سنوات وسنوات وأصبحنا أصدقاء»[1].

(1) **مدن ورجال ومتاهات**، عبد الوهاب البياتي، ص.ص (70 ـ 71)، ط1، 1999م، دار الكنوز الأدبية، بيروت.

أثر المنتخبات الشعرية

ولا يخفى الأثر الجميل للمنتخبات الشعرية التي ينتقيها المعلم ذو الحس الأدبي، فتترك أثرها ولا شك، مع اختلاف منازع المعلمين واتجاهاتهم، ومما يزيد ذلك تأكيدًا، ما ذكره الشيخ يوسف القرضاوي في ذكرياته عن أستاذه الذي كان يحفظهم أبياتًا يختارها، ونلمس تركيزه على المضامين أكثر من الناحية الجمالية لتلك الأبيات، فيقول الدكتور القرضاوي: «**وعندما انتقلت من الفرقة الأولى إلى الفرقة الثانية وحصلت على الإجازة لنستمتع بحق اللعب والراحة فيها، وعدنا إلى المدرسة، كان مدرسنا من أبناء القرية، وهو الأستاذ المربي الفاضل: سعيد سليمان ثابت، ابن شيخ معلمي القرية الشيخ سليمان تائب أو ثابت.**

وكان الأستاذ سعيد أو سعيد أفندي معلمًا بفطرته وخبرته، وكانت بيننا وبينه مودة ومحبة، وكان يدرس لنا التاريخ والجغرافيا وعلم (الأشياء) (ويعنى به ما نريد الآن من مادة (العلوم). والصحة والحساب والإملاء والخط والمطالعة والمحفوظات. فلم يكن مدرس مادة، إنما هو مدرس فصل أو صف.

وقد درَّس لنا سعيد أفندي أكثر من سنة، وكان له

حسٌ أدبي قوي يتجلى في اختياراته لما نحفظه من قطع أدبية، ومما أذكره مما حفظه لنا شعر للإمام الشافعي[1]:

ومن لم يذق ذل التعلم ساعةً
تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه
فكبّر عليه أربعًا لوفاته
حياة الفتى - والله - بالعلم والتقى
إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته»[2].

ويذكر القرضاوي أيضًا معلمًا آخر امتاز باختياراته الرائعة، وتربية ذائقة طلابه ذلك هو الشيخ فوزي خشبة الذي قال عنه الشيخ القرضاوي: «**ومن هؤلاء: الشيخ فوزي خشبة مدرس الأدب العربي المحبوب من طلبته، وذو التأثير القوي فيهم، والذي كان يقارن بأساتذة الأدب العربي في الكليات الجامعية، وكان رجلاً جادًا مهيبًا برغم لطفه ودماثته، وذا عبارات ساخرة يحفظها طلابه.**

وكان يهتم بمادة (الإنشاء) ويدفع طلابه دفعًا إلى إتقان الكتابة، والتفنن فيها، ويعلِّق على بعض الطلاب بعبارات مشجعة حينًا، ولائمة أحيانًا، مثل: وضعت رجلك على أول الطريق، فسر على بركة الله، أو: بينك

(1) محمد بن إدريس الشافعي: (150هـ - 250هـ)، صاحب المذهب الشافعي في الفقه الإسلامي.

(2) **ابن القرية والكتاب**: د. يوسف القرضاوي، ج1، ص.ص (134 - 135)مرجع سابق.

وبين الإنشاء مراحل ومراحل. أو: أنت مشرِّق وموضوعك مغرِّب.. إلخ.

ولم أر الشيخ فوزي خشبة إلا في حصة إضافية، كان مدرسنا فيها غائبًا، وكانت حصة محفوظات، ودائمًا كانت حصص المحفوظات للراحة، فكيف إذا كانت حصة إضافية؟!

ولكن الشيخ خشبة رجل ملتزم لا يسمح لنفسه إلا أن يعطي كل شيء حقه، فهذه مسؤولية أمام ربه، وأمام ضميره، ولا ينبغي منه أن يضيع وقت الطلاب سدى، دون أن يستفاد منه في علم أو أدب.

ولهذا بمجرد دخول الفصل مسح السبورة، وبدأ يكتب عليها شعرًا لابن زيدون الشاعر الأندلسي الشهير، فيما كان بينه وبين ولادة بنت المستكفي. وطلب منا أن نتابع هذه الأبيات وراءه، ونجتهد في حفظها في أثناء كتابتها. وهي أبيات ثلاثة ما أسرع ما تحفظ، وهي التي تقول:

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع
سِرٌّ إذا ذاعت الأسرار لم يذعِ
يا بائعًا حظه مني، ولو بُذِلَتْ
لي الحياة بحظي منه لم أبعِ
تِهْ أحتمل، واستطل أصبر، وعز أهُن
وول أقبل، وقل أسمع، ومر أطعِ

وبعد كتابتها قدمها لنا بحديث عما كان بين ابن

زيدون وولادة من حب سارت به الركبان، وما كان بينهما من مودة ووصال حينًا، وجفوة وهجران حينًا آخر، كما حدثنا عن المعاني التي تحتويها هذه الأبيات القصيرة. ثم سأل: هل منكم من حفظ هذه الأبيات؟ وذلك بعد أن كان مسحها من السبورة، فرفعت يدي، وسمَّعتُها وهي يسيرة. وسأل عدة طلاب، منهم من حفظ بيتين، ومنهم من حفظ بيتًا واحدًا، ولم يجد من حفظ البيت الأخير غيري، وهو الذي يشتمل على اثني عشر فعلاً من بين فعل أمر وفعل مضارع.

ثم وجد في الوقت سعة، فأعطانا قطعة أخرى في نفس الموضوع لابن زيدون، وهي التي يقول فيها:

ودِّع الصبرَ محبٌّ ودَّعَكْ
ذائعٌ من سره ما استودعكْ
يقرع السنَّ على أن لم يكن
زاد في تلك الخطا إذ شيّعكْ
يا أخا البدر سنا وسنا
رحم الله زمانًا أطلعكْ
إن يطُل بعدك ليلي، فلكم
بت أشكو قصرَ الليل معكْ

وقد حفظت هذه الأبيات كما حفظت تلك، من حصة الشيخ خشبة الإضافية في مادة (المحفوظات) التي لم يكن أكثر المشايخ يعيرونها أي التفات»[1].

(1) المرجع السابق ج1/ ص. ص (208 ـ 210).

إسعاف النشاشيبي ومختاراته الشعرية

ويؤكد تأثير المختارات الشعرية في ذائقة الناشئة، وما تتركه من أثر جليل في نفوسهم، وخصوصًا عندما تكون من اختيار أديب كبير مثل إسعاف النشاشيبي، يدرك مكامن الجمال فيما يختار، وهذا ما حكاه جبرا إبراهيم جبرا فقال: **«وكان في المختارات الشعرية التي هيأها إسعاف النشاشيي لطلبة المدارس في كتاب عنوانه «البستان» يوزّع علينا مجانًا عالم غريب جميل من ماض أخذ شيئًا فشيئًا يتشكل ويتجسم في خيالي من خلال القصائد القصيرة التي برع جامعها في انتقاء أبياتها وشرحها. ورحت أحفظ العديد من تلك القصائد عن ظهر قلب وألقيها بصوت رفيع عال كلما تسلقت شجرة أو وقفت على «سلسلة» على حافة الوادي وكأني أخاطب بها أشجار الزيتون ودوالي العنب سواء فهمتها أم لم أفهمها. كانت اللغة بحد ذاتها تهزني بأصوات كلماتها وإيقاعاتها فكيف إذا أدركت معاني بعضها! وكان معلم العربية جبور عبود يختار منها قصائد الفخر والحماسة لكي**

نحفظها كواجب مدرسي. وما كان أروع أن ترفع الحنجرة بأبيات تقول: «وإني من القوم الذين هم هم... إذا مات منهم سيد قام صاحبه»[1].

(1) **البئر الأولى**، جبرا إبراهيم جبرا، ص131، مرجع سابق.

كتاب الأغاني[1]

أما عبد الوهاب البياتي[2] فقد حظي بأستاذين أديبين، استعانا بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني[3] في تهيئة طلابهما، وإمتاعهم قبل الخوض في غمار الدرس، وقد ذكر ذلك ذكر الشاكر فقال: «**عندما كنت طالبًا في المرحلة الثانوية كان مدرس اللغة العربية الأستاذ صادق الملائكة وهو والد الشاعرة الكبيرة نازك الملائكة**[4] **يقرأ لنا فصولاً وصفحات في هذا الكتاب «الأغاني» على أنه كتاب للتسلية والمتعة.**

(1) **كتاب الأغاني**: قام أبو الفرج الأصفهاني (284هـ/ 897م ـ 356 هـ/ 967م) بتأليف هذا الكتاب في خمسين عامًا، ويُعدُّ مرجعًا لمعرفة الآداب العربية والمجتمع الإسلامي في العصر العباسي وتصوراتهم عن المجتمع الجاهلي والصدر الأول والعصر الأموي.

(2) عبد الوهاب البياتي: (1926 ـ 1999)، شاعر وأديب عراقي.

(3) أبو الفرج الأصفهاني: (284هـ ـ 356هـ) من أدباء العرب، صاحب كتاب الأغاني.

(4) نازك الملائكة: (1923م ـ 2007م) شاعرة عراقية، رائدة الشعر العربي الحديث.

وكذلك كان يفعل الدكتور مصطفى جواد[1] في دار المعلمين العالية إذ إنه كان يحفظ صفحات كثيرة منه ويرويها عن ظهر قلب»[2].

(1) مصطفى جواد: (1904م - 1969م)، علم من أعلام العراق المعاصر.

(2) **مدن ورجال ومتاهات**، عبد الوهاب البياتي، ص28، ط1، 1999م، دار الكنوز الأدبية، بيروت.

كتاب الأغاني مرةً أخرى

ويتكرر الأمر نفسه لدى عبد القادر القط[1] حيثُ يبدأُ معلمه الحصةَ بقصةٍ يختارها من كتاب الأغاني، ولنقرأ ذلك بقلمه؛ حيثُ يقول: **«مدرس اللغة العربية كان يبدأ الدرس فينهمك بأقصوصة من التراث، من كتاب الأغاني أو من كتب اللغة العربية القديمة الأخرى. وكنا نستمتع بهذا متعة كبيرة جدًا.**

وأيضًا كان يحاول أن يبتكر في موضوعات الإنشاء. ومما أذكره من تلك الموضوعات موضوعًا قال فيه «خواطرك في ليلة أرقت فيها» هذا موضوع طريف وجميل. وكان المألوف أن يتكلم الطلاب عن الموضوع في الفصل، وكان لي تميز بحكم التفوق أن أكتب الموضوع في البيت فأخذت الكراسة وأرقت للموضوع ليلة، وكتبت موضوعًا في نصف الكراسة. أدرك الآن أن الموضوع كان في معظمه اقتباسًا مما قرَّ في ذهني من المنفلوطي[2]

(1) عبدالقادر القط: (1916م - 2002م) من كبار أساتذة النقد الأدبي في مصر خلال النصف الثاني من القرن العشرين.

(2) مصطفى لطفي المنفلوطي: (1924م - 1976م)، أديب مصري، نابغة في الإنشاء والأدب.

لأني كنت مستوعبًا أدب المنفلوطي في هذه الفترة، والموضوع يتيح لك أن تسيح في عوالم كثيرة كما يحلو لك. فأعطاني أعلى درجة يحصل عليها طالب في هذه الأيام وهي «9,5» من عشرة. وأحب الأستاذ أن يجاري فخامة أسلوب المنفلوطي فقال عبارة ما زلت أذكرها لطرافتها: «لقد طنبت للتحرير فأثبت كل عبارة فاغية فكنت كالمعن المفن فأزف إليك البشرى».

بين طه حسين وشيوخه

وما أكثر ما دار بين طه حسين ومعلميه وما أكثر حوادثه التي رواها في كتابه (الأيام) عن معلميه، منذ حداثة سنه في الكُتَّاب كما أشرت، وبعد ذلك في الأزهر، ومن ذلك حديثه عن شيوخ كبار مشهورين، أمثال الشيخ المرصفي[1] والشيخ الخضري[2]، والشيخ عبد الله دراز والشيخ محمد المهدي فيقول: «**أشيع ذات يوم أن الشيخ المرصفي سيخصص يومين من أيام الأسبوع لقراءة المفصل للزمخشري في النحو. فسعى صاحبنا إلى هذا الدرس الجديد. ولم يسمع للشيخ مرة ومرة حتى أحبه وكلِف به، وحضر درسه الأدب في أيامه من كل أسبوع، ولزم الشيخ منذ ذلك الوقت.**

وكان الصبي[3] قوي الذاكرة، فكان لا يسمع من

---

(1) الشيخ المرصفي: (توفي عام 1939م) أزهري مصري عالم باللغة والأدب.

(2) الشيخ محمد الخضري: (1872م ـ 1927م) باحث وخطيب مصري، من العلماء بالشريعة والأدب، وتاريخ الإسلام، وله في ذلك مؤلفات عديدة.

(3) يعني نفسَه.

الشيخ كلمة إلا حفظها، ولا رأيًا إلا وعاه، ولا تفسيرًا إلا قيده في نفسه.

وكثيرًا ما كان يعرض البيت وفيه كلمة قد مضى تفسيرها أو إشارة إلى قصة قد قصها الشيخ فيما قَدُم من درسه، فكان صاحبنا يعيد على الشيخ ما حفظ من قصصه وتفسيره وما قيد من آرائه وخواطره ونقده لصاحب الحماسة وشراحها، وتصحيحه لرواية أبي تمام، وإكماله للمقطوعات التي كان أبو تمام يرويها...

وكان من بين الأساتذة المصريين الشيخ محمد الخضري ﷺ، كان يدرس التاريخ الإسلامي، وقد سحر الفتى بعذوبة صوته وحسن إلقائه وصفاء لهجته، وأحب دروسه في السيرة وفي تاريخ الخلفاء الراشدين وفتوحهم وفي تاريخ الفتن ودولة بني أمية والصدر الأول من دولة العباسيين. وكان يظنّ أن ليس فوق علم الأستاذ علم، ولكنه لم يكد يسمع دروس التاريخ في أوروبا حتى عرف أن الأستاذ ﷺ كان ينقل دروسه نقلاً من كتب القدماء في غير نقد ولا تعمق وفي أيسر ما كان يمكن من فقه التاريخ...

وأخذ الغلام يسمع على الشيخ عبد الله درَّاز شرح ابن عقيل، وبينما الأستاذ وطلابه ماضون في درسهم، راضون عن عملهم، صدر الأمر إلى الأستاذ بالانتقال إلى معهد الإسكندرية.

فمانع في ذلك ما استطاع، ومانع طلابه ما استطاعوا، ولكن المشيخة لم تسمع له ولا لهم، فلم يجد

بدًا من إنفاذ الأمر. ولم ينسَ الغلام ذلك اليوم الذي ودَّع الأستاذُ فيه طلابه، وإنه ليبكي مخلصًا، وإنهم ليبكون مخلصين ويشيعونه باكين إلى باب المسجد...

وكان من الأساتذة المصريين أستاذان أحبهما الفتى أشد الحب، وعبث بهما أشد العبث، واستغل سذاجتهما ووداعتهما أشنع الاستغلال. كان أحدهما الشيخ محمد المهدي ﷺ، أقبل يدرس الأدب العربي بعد حفني ناصف[1]، فكان الفرق بين الأستاذين خطيرًا بعيد المدى. كان أحدهما عميق العلم، وكان الآخر أبعد ما يكون عن العمق. كان أحدهما سمحًا لا يتكلف ولا يتصنَّع، وكان الآخر متكلفًا متفاصحًا لا يتكلَّم إلا العربية الفصحى مغربًا فيها يملأ بها فمه، وربما أضحك منها طلابه»[2].

(1) حفني ناصف: (1855م ـ 1919م) أديب ولغوي مصري.

(2) الأيام، طه حسين، ص 356، ط1، 1992م، مركز الأهرام للترجمة، والنشر.

ثناء القرضاوي
على الشيخ محمد دراز

أما الدكتور يوسف القرضاوي فيسبغ حلل الثناء على أستاذه: الدكتور محمد عبد الله دراز[1]، ولستُ أدري أله صلة بالشيخ عبد الله دراز الذي ذكره آنفًا طه حسين، أم أنه توافق في الاسم، والذكر الحسن؟ ومن كلام الشيخ القرضاوي عنه قوله: «**ومن أهم ما استفدته في تخصص التدريس: أن كان من أساتذتنا فيه الشيخ الدكتور العلامة محمد عبد الله دراز، الذي كان يدرسنا علم (الأخلاق).**

وكان يتدفق في معارفه كأنما يغرف من بحر، ويبهر سامعه كأن كلامه السحر، ويشرح الدقائق فيجليها، والغوامض فيكشف عن خوافيها، ويبين عن معانيها، لقد كنت أستمع إليه، وأنا معجبٌ متابع، ورأيت أنه ينطبق عليه ما كان يكتبه الأولون، عن علمائهم ومؤلفيهم، مثل العالم العلامة، والحبر البحر الفهَّامة.

فهذا ما يمكن أن نقوله عن الشيخ، فقد أحاط

---

(1) محمد عبد الله دراز: (1894 ـ 1970م) فقيه متأدب مصري أزهري، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر.

بعلوم الدين من التفسير والحديث والتوحيد والأصول والفقه، وبعلوم اللغة من النحو والصرف والبلاغة، وبالأدب وتاريخه، وبالعلوم الإنسانية العصرية، التي درسها في (السوربون) وحصل بها على الدكتوراه، وقدَّم فيها أكثر من رسالة، وبخاصة رسالته للدكتوراه (دستور الأخلاق في القرآن الكريم).

كان الشيخ دراز علمًا من أعلام الفكر، وإمامًا من أئمة الدين، وبحرًا من بحور العلم والثقافة، جمع حقًا بين الأصالة والمعاصرة، فإن شئت نسبته إلى جامع (الأزهر) فهو ابنه البار، وتكوينه الأزهري قويٌّ متين، وإن شئت نسبته إلى جامعة (السوربون) فهو من خريجيها الذين تعتز بهم، وتفخر بانتمائهم إليها، وهو أحد رجال الفلسفة والأخلاق المعدودين في عالمنا العربي والإسلامي»[1].

(1) **ابن القرية والكتاب**، د. يوسف القرضاوي، ج2 ص.ص (16 ـ 17). مرجع سابق.

طه حسين ومرجع الضمير

وعودًا إلى طه حسين وشيوخه فقد نقم طه حسين على أكثرهم وشنع عليهم كما شنعوا عليه، ومن قصصه مع أولئك، قصته مع الشيخ الذي تولى تدريسهم مكان الشيخ عبد الله دراز، ومن قوله فيه: «**أُقيم مقام الشيخ عبد الله دراز شيخٌ آخر ضرير، وكان مشهورًا بالذكاء الحاد والتفوق الظاهر والنبوغ الممتاز، وكان لا يُذكر إلا أثنى عليه ذاكروه والسامعون لذكره بهذه الخصال.**

أقبل هذا الشيخ، فأخذ الدرس من حيث تركه عبد الله دراز، وكانت حلقة الشيخ عبد الله دراز عظيمة تملأ رقعتها القبة من مسجد محمد بك أبي الذهب. فلما خلفه هذا الشيخ ازدادت هذه الحلقة ضخامة واتساعًا حتى اكتظ بها المكان. وألقى الشيخ درسه الأول فرضي عنه الطلاب، ولكنهم لم يجدوا عنده وداعة أستاذهم القديم ولا عذوبة صوته. ثم ألقى درسه الثاني والثالث، وإذا الطلاب ينكرون منه رضاه عن نفسه وإعجابه بها، وثقته بما كان يقول، وغضبه الحاد من مقاطعيه. ولم يكد يتقدَّم في درسه حتى كانت بينه وبين صاحبنا قصة صرفت الغلام عن النحو صرفًا.. كان الشيخ يفسر قول تأبط شرًا:

فــأُبــتُ إلــى فــهــمٍ ومــا كــدت آئــبًــا
وكـم مـثـلـهـا فـارقـتـهـا وهـي تـصـفـرُ

فلما وصل إلى قوله (تصفرُ) قال: إن العرب كانت إذا اشتدت على أحدهم أزمة أو محنة وضعوا أصابعهم في أفواههم ونفخوا فيها، فكان لها صفير يُسمع.

قال الغلام[1] للشيخ: وإذن فما مرجع الضمير في قوله (وهي تصفرُ؟) وفي قوله (وكم مثلها فارقتها؟) قال الشيخ: مرجعه (فهم) أيها الغبي. قال الغلام: فإنه قد عاد إلى فهم والبيت لا يستقيم على هذا التفسير قال:فإنك وقح وقد كان يكفي أن تكون غبيًا. قال الغلام: ولكن هذا لا يدلُ على مرجع الضمير. فسكت الشيخ لحظة ثم قال: «انصرفوا فلن أستطيع أن أقرأ وفيكم هذا الوقح»[2].

(1) الغلام: يعني نفسه.

(2) الأيام، طه حسين، ص. ص (258 ـ 260)، مرجع سابق.

المعلم الذي طرد القرضاوي من الفصل

ويشبه هذا الموقفَ موقفُ الشيخ القرضاوي وهو يعترض على أستاذ الفقه الحنفي، فيطرده من الفصل، وإليكم الحكاية بقلم الشيخ القرضاوي: **«كان يدرسني في السنة الخامسة الفقه الحنفي مدرس كفء وإن كان مكفوف البصر، هو الشيخ محمود الدفتار، وهو من آل الدفتار، وهم أسرة معروفة بالانتساب إلى المذهب الحنفي، والاعتزاز به، فأحدهم يقال له: أبو حنيفة، والثاني: أبو يوسف، والثالث: محمد.**

كما كان لهم نزعة صوفية ظاهرة تتمثل في الاعتقاد في الأولياء، والمبالغة في إثبات كراماتهم وخوارقهم. وقد كان الذي يدرسنا مادة (العروض والقافية) في السنة الأولى الثانوية، هو الشيخ أمين الدفتار، وكان يختار أمثلته من شعر الصوفية الذي ينزع هذا المنزع، فهو يمثل لنا عن بحر (الكامل) بقول الشاعر:

لذ بالمقام الأحمديّ وقل: مَدَدْ

يا سيّد الأقطاب يا نعم السّندْ!

وكان لا يقبل أي مناقشة حول هذه القضية، وكان يذهب كل ليلة ليجلس في مقام السيد ما بين المغرب والعشاء، لا يكاد ينقطع عن ذلك إلا لسبب.

وكذلك كان الشيخ محمود من أحباب السيد البدوي والمدافعين عنه. وقد اجترأت مرة فناقشته في أن الأضرحة التي تقام للأولياء ويدفنون فيها، ليست على منهج السنة، وأن النبي ﷺ نهى عن الصلاة إلى القبور، والصلاة عليها، كما نهى عن إضاءتها وإيقاد السرج عليها، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد. ودخلت مع الشيخ في مناقشة، وقال لي: أيهما أولى: أن تصلي قرب الميضأة أم تصلي بجوار الضريح؟ قلت له بصريح العبارة: أن أصلي قرب الميضأة فنهرني بشدة، وقال: أنت وهابي تبغض الأولياء. قلت له: أنا أقول ما درسته في هذا المعهد في (صفوة صحيح البخاري) فأسكتني وأغلق المناقشة.

وفي مرة أخرى، كان الشيخ يشرح لنا (باب الأضحية) في الفقه، وما لها من فضل أغفله أكثر الناس، أو قَلَّتْ قدرتُهم عن القيام به، وهنا تدخلتُ وقلت له: يا فضيلة الشيخ، إن كثيرًا من الناس يذبحون بالفعل، ولكنهم يذبحون للبدعة، ولا يذبحون للسنة. قال لي: كيف يذبحون للبدعة؟ قلتُ: عندنا في قريتنا وفي غيرها من القرى أناس كثيرون ينذرون خرافهم لتذبح في مولد السيد، وهذه بدعة ولا يذبحون يوم عيد الأضحى، وهي سنة. ولو أن العلماء قاموا بواجبهم، ونبهوا الناس على

ذلك، لأحيينا السنة وأمتنا البدعة. فغضب الشيخ، وقال لي: اخرج من الفصل»[1].

(1) ابن القرية والكتاب، د. يوسف القرضاوي، ج1، ص.ص (201 ـ 203)، مرجع سابق.

اسكتْ يا أعمى

ويروي طه حسين قصة أخرى مع أحد شيوخه فيقول:

«غضب القصر على شيخ كبير من شيوخ الأزهر؛ فمنع الشيخ من إلقاء دروسه، ورأى الناس أن في هذا المنع ظلمًا للشيخ وعدوانًا على حقوق الأزهر، ولكنهم لم يصنعوا شيئًا، وكان الأزهريون أشدهم فتورًا وخضوعًا، ولكن صديقًا من أصدقاء الفتى أقبل عليه ذات يوم فقال له: ألستَ ترى فيما حلَّ بشيخنا ظلمًا وعدوانًا؟ قال الفتى: بلى وأي ظلمٍ وأي عدوان! قال له الصديق: ألا تشارك في الاحتجاج على هذا الظلم؟ قال الفتى: وكيف السبيل إلى ذلك؟ قال الصديق: نجمع نفرًا من أصدقائنا الذين كانوا يسمعون دروس الشيخ ونسعى إليه نتمنى عليه أن يمضي في إلقاء دروسه علينا في بيته، فإذا قبل انتفعنا بالدرس وأعلنا ذلك في الصحف فعرف الظالمون للأزهر أن في الأزهريين من لا يقرون الظلم ولا يُذعنون له. قال الفتى: هذا حسن.

واجتمع نفرٌ من طلاب الشيخ فسعوا إليه بما أرادوا، وأجابهم إلى ما طلبوا فاعلنوا ذلك في الصحف، وأعلنوا أن الشيخ سيقرأ لهم (سُلَّم العلوم) في المنطق

(ومسلم الثبوت) في الأصول، يقسم الأسبوع بين هذين الكتابين.

وبدأ الشيخ دروسه في بيته، وكثر الطلاب المقبلون على هذه الدروس حين علموا بها، ورضي هؤلاء الشباب عن أنفسهم وعن شجاعتهم، وعاد إلى الفتى قليل من الأمل.

ولكنه في ذات يوم جادل الشيخ في بعض ما كان يقول. فلما طال الجدل غضب الشيخ وقال للفتى في حدة ساخرة: «اسكت يا أعمى ما أنت وذاك». فغضب الفتى وأجاب الشيخ في حدة: «إن طول اللسان لم يثبت قط حقًا ولم يمح باطلاً». فوجم الشيخ ووجم الطلاب لحظة، ثم قال الشيخ لطلابه: «انصرفوا اليوم فهذا يكفي».

ولم يعد الفتى منذ ذلك اليوم إلى دروس الشيخ، بل جهل كل ما كان من أمرها»[1].

(1) الأيام: طه حسين - ص. ص (272 ـ 275) مرجع سابق.

أقبل يا أعمى ..
انصرف يا أعمى

وما أقسى تلك الكلمات التي تَصِمُ التلميذ بعيب لا يد له فيه، كما حدث للدكتور طه حسين أيضًا مع شيخ آخر وصفه بالأعمى، فروى تلك القصة في كتابه الأيام فقال: **«سعى [يعني نفسه] إلى مكان الامتحان في زاوية العميان خائفًا أشد الخوف مضطرب النفس أشد الاضطراب، ولكنه لم يكد يدنو من الممتحنين حتى ذهب عنه الوجل فجأة، وامتلأ قلبه حسرة وألمًا، وثارت في نفسه خواطر لاذعة لم ينسها قط؛ فقد انتظر أن يفرغ الممتحنان من الطالب الذي كان أمامهما، وإذا هو يسمع أحد الممتحنين يدعوه بهذه الجملة التي وقعت من أذنه ومن قلبه أسوأ موقع: «أقبل يا أعمى»».**

ولولا أن أخاه أخذ بذراعه فأنهضه في غير رفق وقاده إلى الممتحنين في غير كلام، لما صدَّق أن هذه الدعوة قد سيقت إليه، فقد كان تعود من أهله كثيرًا من الرفق به وتجنبًا لذكر هذه الآفة بمحضره. وكان يُقدِّر ذلك وإن كان لم ينس قط آفته ولم يُشغل قط عن ذكرها. ومع ذلك فقد جلس أمام الممتحنين وطُلب إليه أن يقرأ

سورة الكهف فلم يكد يمضي في الآيات الأولى منها حتى طُلب منه أن يقرأ سورة العنكبوت، فلم يكد يمضي في الآيات الأولى منها حتى قال له أحد الممتحنين: «انصرف يا أعمى، فتح الله عليك»[1].

(1) المرجع السابق: ص.ص (224 ـ 225)

الشيخ الذي ملأ الجامعة فكاهة

ويتحدث طه حسين أيضًا عن شيخه طنطاوي جوهري فيقول: «وكان الأستاذ الآخر الذي ملأ الجامعة فكاهة ودعابة، وملأ الطلاب عبثًا به واجتراءً عليه، وملأ بطون الطلاب من طعامه هو الشيخ طنطاوي جوهري ﷺ[1].

كان يدرس الفلسفة الإسلامية.. وكان يتكلَّم كثيرًا ولا يقول شيئًا، وكانت كلمات الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة والإشراق أكثر الكلمات جريانًا على لسانه منذ يبدأ الدرس إلى أن يتمه، وكان لا ينطق بكلمة منها إلا مد ألفها فأسرف في المد، وربما أخذه شيء من الذهول وهو يمد هذه الألف فيغرق الطلاب في ضحك يخافت به بعضهم ويجهر به بعضهم الآخر؛ ويفيق الأستاذ من ذهوله على هذا الضحك، فيلوم الطلاب لا على أنهم يضحكون، بل على أنهم لا يشاركونه في الإعجاب بجمال الطبيعة وجلال الكون، وبهاء القمر حين يرسل ضوءه المشرق على صفحة النيل، ويمد ياء النيل فيسرف في مدها ويأخذه ذهول يجرُّ الطلابَ إلى ضحكٍ متصلٍ»[2].

---

(1) طنطاوي جوهري: (1870م - 1940م) عالم وفيلسوف.

(2) الأيام، طه حسين، ص. ص (358 - 359)، مرجع سابق.

معلمان من الإنجليز

ويتحدَّث الدكتور عبد الرحمن بدوي عن اثنين من معلميه الإنجليز فيقول: «**كان يقوم بتدريس اللغة الإنجليزية مدرسون إنجليز غالبًا؛ وأذكر منهم اثنين ممتازين حريصين على التعليم، هما: (ماك ناني MAC NANY) و(هنتر HUNTER)، كان أولهما جادًا كل الجد، لا أذكر أنه ابتسم ولو مرة واحدة، ناهيك أن يضحك، وكان حريصًا على تصحيح الأخطاء النحوية واللغوية في الحال عندما ينطق أي طالب بأي خطأ، ولو كان الخطأ شائعًا. أذكر مثلاً أنني حين ينتهي الدرس ويستمر هو في التدريس أقول: TIME IS OVER فيصحح عبارتي في الحال قائلاً: TIME IS UP ـ وهكذا باستمرار أما هنتر HUNTER فدرَّس لي في السنة الخامسة. ولما رأى تفوقي في اللغة الإنجليزية وقراءاتي العديدة في آدابها، توثقت العلاقة بينه وبيني، فكان يمدني بالملحق الأدبي لجريدة (التايمز) في كل أسبوع، وأحيانًا بالأعداد التي يفرغ من قراءتها من صحيفة (التايمز) اليومية، كما كان يعيرني بعض الكتب الأدبية والتاريخية**»[1].

(1) سيرة حياتي، عبد الرحمن بدوي، ج1، ص. ص (39 ـ 40)، مرجع سابق.

المفتش الإنجليزي

ويأخذنا حديث الدكتور عبد الرحمن بدوي عن معلمَيه الإنجليزيين إلى كلام جبرا إبراهيم جبرا عن المفتِّش الإنجليزي(فارل) الذي هبطَ عليهم في الصف فجأة وكان له معهم ومع أستاذهم حكاية رواها جبرا فقال: «**كان يأتينا من حين لحين مفتش انكليزي، رهيب الطلعة له حاجبان كثان يعلوان عدستي نظارته كشجرتين صغيرتين مزروعتين في جبينه، اسمه المستر فارل. وقد فاجأ المستر فارل ذات يوم المعلم فهيم وهو يعطينا درسًا بالإنكليزي ووجه إلينا أسئلة حول معاني بعض الكلمات ثم حول تهجئة كلمات أخرى بسيطة. فأعطيناه عنها أجوبة صحيحة. ثم قال: «والآن من يستطيع أن يكتب على اللوح «بيوتوفل«؟»**.

فاضطرب المعلم وقال إنها كلمة «طويلة وصعبة» وأجال بصره بين الصبية بشيء من الأمل وكثير من اليأس. وحيدًا بينهم رفعت أنا إصبعي. ولكن المستر فارل لم يكن مقتنعًا بجرأتي. فقال لي بعربية مثقلة باللكنة: «تعال واكتبها على اللوح».

نزلت إلى اللوح وكلي قلق وخشية وناولني هو قطعة من الطباشير وكتبت (beautiful) وهتف المعلم

فهيم: «رائع» ودُهش المستر فارل والتمعت عيناه العميقتان من وراء نظارته تحت حاجبيه الكثيفين وقال: «جيد جدًا!ما اسم هذا الولد؟» ودون ملاحظة في دفتره. وأغلب الظن أن ما دونه في تلك اللحظة جعله يتذكر اسمي سنينًا عديدة فيما بعد على نحو كان له أثره في دراستي وأنا لا أدري.

وضحك المعلم فهيم فرحًا وقال: «بيضت وجهي! بيض الله وجهك!»[1].

---

(1) **البئر الأولى**، جبرا إبراهيم جبرا، ص 130، ط1، مرجع سابق.

الأستاذ المهيب

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي عن أستاذ اللغة العربية في المدرسة السعيدية: **«كان الشيخ عثمان أبو النصر مدرسًا مهيب الطلعة بجبته وقفطانه وعمامته، وكان جادًا حريصًا على كرامته، لا يتبذَّل ولا يترخص مع التلاميذ. وكان في العلم حسنًا، وإن لم نفهم شيئًا. وقد تتلمذت عليه في السنة الثانية، ولاجتهادي وتفوقي في اللغة العربية وآدابها كان يؤثرني بتقديره.**

ولم أره بعد ذلك إلا في الامتحان الشفوي للغة العربية في البكالوريا، فعرفني على الفور وطلب مني أن أنشد قصيدة من شعري أنا، بدلاً من شعر غيري الذي كان مطلوبًا من سائر الطلاب، وأعتقد أنه أعطاني الدرجة النهائية في شفوي اللغة العربية...»[1].

(1) سيرة حياتي، عبد الرحمن بدوي، ج1، ص 41، مرجع سابق.

بنت الشاطئ في قاعة الامتحان

ويذكرنا موقف عبد الرحمن بدوي هذا بالامتحان الذي أجري للدكتورة بنت الشاطئ، لتتم دراستها في معهد المعلمات، فأدهشت الممتحنين بحفظها، وزادت دهشتهم بأن تنشد من شعرها، فنصحوها أن تعدل عن طريقها إلى طريق أشق وأطول لكن ثمرته أينع، وهي تحكي لنا تلك الحادثة في كتابها (على الجسر) فتقول:

«.. يوم أخذت مكاني في جانب من قاعة الامتحان الشفهي لشهادة المعلمات، أنتظر دوري لأؤديه بعد الطالبات الرسميات.

وكان الأساتذة الممتحنون قد ضاقوا بتعثرهن في تلاوة السور القرآنية والنصوص الشعرية المقررة، فلما جاء دوري وتلوت مجودة ما اختاروا لي من سورتي النساء والنور، سُئلت عما أحفظ من النصوص الشعرية، فكان جوابي أن سألت: من أي عصر؟

وعجب الممتحنون لسؤالي، ثم طلبوا نصًا من العصر الجاهلي فأنشدتهم أبياتًا من معلقة طرفة بن العبد، ومرثية لمهلهل بن ربيعة التغلبي في أخيه كليب.

قالوا: أسمعينا شيئًا من شعر صدر الإسلام.

فبادرت أنشد لامية كعب بن زهير (بانت سعادٌ).

ثم ما زالوا ينتقلون بي من عصر إلى عصر وهم في دهشة من حفظي، حتى إذا وصلنا إلى العصر الحديث فاجأتهم بسؤالي:

من شعري أم من شعر سواي؟

ولم ينسني مر السنين، ما بدا عليهم من عجب، وقد قال أحدهم:

إن كنتِ شاعرة فأسمعينا إحدى قصائدكِ.

وأنشدتهم قصيدة لي «في الحنين إلى دمياط» مطلعها:

دميـــاط حـبُـكِ حــركـتْ أشـجـانَـه
آلامُ قـلــبٍ فـــي الــغــرامِ مــصــفًــدِ

ثم أتبعته أخرى:صورة شعرية لزوجة صياد خرج إلى البحيرة في ليل عاصف..

ولم يبق لديهم ما يمتحنونني فيه، فأقبلوا عليَّ يسألونني عن وجهتي في التعليم بعد نيل هذه الشهادة لكفاءة المعلمات، وكان أقصى ما يقف عنده الشوط الذي سرت فيه، إتمام الدراسة «بالقسم الإضافي في معلمات بولاق» ومدته سنتان تتخرج بعده الطالبات معلمات في المدارس الابتدائية أو الأولية الراقية، على حين لا يتاح لحاملات شهادة الكفاءة إلا التعليم في المدارس الأولية والإلزامية..

وأجبت على سؤال السادة الممتحنين:

في نيتي أن أعكف على تحصيل المواد المقررة في

القسم الإضافي، ثم أتقدم من المنزل لأداء امتحان النهائي..

فأنكروا ما سمعوا من جوابي، وزينوا لي أن أعدل عن هذا الطريق القريب، إلى طريق الجامعة ففيها وحدها المجال الرحب الذي يستحق أن أتعلق به وأسعى إليه»[1].

ووجدتُ نصيحة الممتحنين في بنت الشاطئ أذنًا واعية، فأعادت ترتيب خطتها لتلتحق بالجامعة، على أن ذلك كلفها مشقةً وعنتًا ومعارضة من والدها الذي كان يرى الجامعة مصدرًا للزيغ والضلال، وهناك التقت أستاذها أمين الخولي، الذي ارتبطت حياتها بحياته، ومن الجامعة انطلقت بنت الشاطئ لتكون إحدى أبرز الشخصيات العلمية النسائية في القرن العشرين.

(1) علي الجسر، عائشة بنت الشاطئ، ص.ص (63 ـ 65)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، 2002م.

معلمو الأمس ومعلمو اليوم

ويؤكد كثير من الكتاب أن معلمي الأمس كانوا أكثر عمقًا وأشد إخلاصًا، وأبلغ أثرًا من معلمي اليوم، ومن أولئك الشيخ علي الطنطاوي الذي يقول: «**إذا كان كثيرٌ من المعلمين يعملون ليأخذوا الراتب، وكثير من الطلاب يقرؤون ليحملوا الشهادة، وكان في المدرسين المهمِل المسيِّب، وكان فيهم زائغ القلب، فاسد العقيدة، فقد كان أكثر معلمينا، يعلموننا ابتغاء ثواب الله، وحبًا بنشر العلم، وكنا (أو كان أكثرنا) نتعلم حبًا بتحصيل العلم، ورغبة في الأجر من الله.**

وكانوا كالآباء لنا، يهتمون بدنيانا، وأخرانا.

فهل تستكثرون عليَّ أن أنضح بالدمع قبور رجال ملؤوا قلبي بالعاطفة التي ينبع منها الدمع»[1].

والطنطاوي في الجملة يرى أن أولئك المعلمين طراز لم يعد له مثيل فيقول: «**لقد كثر اليوم الأساتذة من حملة**

(1) الذكريات، الشيخ علي الطنطاوي، ج1، ص124، مرجع سابق.

الشهادات، وأصحاب الدكتورات ولكن ذلك الطراز لم يعد له وجود»[1].

ويقول الروائي نجيب محفوظ: **«أحب أن أتوقف أولاً عند ملاحظة جديرة بالتسجيل. وهي أن ذلك الجيل من الأساتذة لا يمكن أن يتكرر في ظل ما نسمع عنه الآن من المستوى الذي انحدر إليه الجيل الحالي. كان ذلك الجيل من الأساتذة متمكنًا من عمله، وعلى درجة كبيرة من الثقافة والموهبة، وانعكس ذلك بالطبع علينا نحن تلاميذ ذلك الزمن»[2].**

والحق معهم في التفريق بين ذلك الجيل وجيل اليوم، إلا أن هذا التحول جاء نتيجة لعوامل عديدة وتحولات كثيرة، لا يتحمَّل المعلم مسؤوليتها جميعًا، وإن أسهم فيها، وإن كانت رسالته وطلابه أول ضحاياها، وأبرز تلك العوامل؛ التغير في مفهوم التعليم، فهو اليوم غيره منذ نصف قرن أو يزيد، فقد أضحى عند كثير من المعلمين لا يعدو بابَ رزقٍ للمعلم، وبابَ شهادة للتلميذ، وأشهد مع ذلك أن في المعلمين بقيةً باقيةً من الصادقين، المخلصين لرسالتهم، وإن قَلَّتْ ونَدُرتْ فلم تُعْدَم يومًا.

(1) السابق، ج1، ص118

(2) **نجيب محفوظ، صفحات من مذكرات واضواء جديدة على أدبه وحياته،** إعداد، رجاء النقاش، ص61، مرجع سابق.

بعض معلمي الطنطاوي بقلمه

وهذه لفتات مما كتب الشيخ الطنطاوي عن معلميه، أجتزئ منها مقاطع إذ قد أفرد مقالات وصفحات لأكثر معلميه، مما يصعب استيعابه هنا، ومن ذلك قوله: «**كان أساتذتنا في مكتب عنبر أصنافًا أما مدرسو العربية فكانوا أئمتها في البلد، وكانوا المرجع فيها: الشيخ عبد الرحمن سلام الخطيب الشاعر، والشيخ المبارك اللغوي الراوية، والشيخ سليم الجندي أستاذ اللغة والنحو والصرف والعَرُوض.**

والشيخ الداوودي، ولم نقرأ عليه، ولكن عرفنا من تلاميذه أنه كان يشرح الدرس على طريقة العلماء الأزهريين، في لطف ظاهر وخلق عظيم، وقلب رقيق، وكان شيخًا كبير السن، مريض الجسم، يستنفد الدرس قوَّته، فيخرج من غرفة التدريس، فيستلقي على الأريكة يستريح... ولما توفي سنة 1926 نظم رفيقنا الشاعر (أنور العطار)[1] قصيدة في رثائه ألقيتها أنا على قبره، في كلمة تأبين لي..

---

(1) أنور العطار: (1908م - 1972م) شاعر رقيق من أدباء المدرسين، دمشقي المولد والوفاة.

والشيخ سعيد الباني، وهو عالم لم يعرف الناس قدره، وكثير منهم نسي اسمه، مع أني أكاد أفضّله في مصنفاته على علماء عصره حتى الشيخ جمال الدين القاسمي، على كبر أقدارهم، وسمو منازلهم، وكثرة مؤلفاتهم، التي ليس فيها (غالبًا) إلا نقل أقوال العلماء وجمعها، أما الشيخ سعيد فهو يقرأ النقول ويفهمها ويهضمها (كما يقولون) ثم يعطيك خلاصة عنها مكتوبة بقلمه هو، ممزوجة برأيه فيها، مع إيراد ما يناسبها، وعندي الآن كتابان له»[1].

وتحدَّث عن الشاعر شفيق جبري[2] فقال: «أما الأستاذ شفيق جبري، فكان يُعِدُّ محاضرة واحدة في الأسبوع، المحاضرة في نحو ست صفحات فقط من صفحات الكتاب، يقرؤها من الورق إلقاءً متئدًا جميلاً، لا يزيد على المكتوب شيئًا، ولا يفتح صدره لمناقشة، وأظنه لا يقدر عليها، وهو شاعر في الطبقة الأولى من شعراء هذا العصر.. كنا نقدم عليه خير الدين الزركلي، ولكن الزركلي تدفق شعره غزيرًا فياضًا نحو عشر سنين ثم غاض، وجبري استمر، وهو أديب ولكن حظه من الاطلاع على الأدب العربي القديم (الذي يسمونه اليوم

(1) الذكريات، الشيخ علي الطنطاوي، ج2، ص200، ط2، 1989م، دار المنارة، جدة.

(2) شفيق جبري: (1897م ـ 1980م) أحد مقدمي شعراء عصره، مولده ووفاته بدمشق.

بادب التراث) حظ قليل، مطلع على الأدب الفرنسي أو على جانب منه، لم يحط به كله ولم يعمق النظر فيه، ولكنه فهم الجانب الذي اطلع عليه فهمًا تامًا»[1].

(1) الذكريات، الشيخ علي الطنطاوي، ج2، ص202، مرجع سابق.

طبقات المديرين

في محاضرة ألقاها الدكتور غازي القصيبي في كلية التربية بمكة المكرمة عام 2004م، بعنوان: (مدرسون في حياتي)[1] ونشرها فيما بعد في كتابه (باي باي لندن)، ذكر نماذج وتجاربَ متنوعة في حياته الدراسية، كان من ضمنها قوله عن ثلاثة مديرين مروا بمدرسته في أوقات متقاربة، خلص مَن تأمل سيرهم إلى طبائع المديرين وطبقاتهم فقال: **«مر على المدرسة خلال فترتي فيها ثلاثة مدراء. كان الأول خاملاً لا يكاد يغادر مكتبه وكنا نسمع عنه ولا نراه. وكان الثاني شعلة نشاط لا يهدأ في مكتبه لحظة، وقد تحولت المدرسة، بأكملها في عهده إلى خلية نحل نشطة. وكان عهد الثالث قصيرًا فقد أصيب مع بداية السنة بمرض عضال أدى إلى عودته إلى مصر وتولى شئون المدرسة مدير بالنيابة.**

وهكذا رأيت بعيني كيف تنام المدرسة مع المدير

(1) تفضَّل الدكتور غازي القصيبي رحمه الله بإرسال أصل هذه المحاضرة إليَّ، ردًا على إهدائي إياه نسخة من الطبعة الأولى من هذا الكتاب، عام 2005م؛ وردتني مشفوعة بخطاب رقيق. قبل أن ينشرها في كتابه، (باي باي لندن) عام 2007م.

الكسول، وتستيقظ مع المدير الحي، وتبقى معلقة مع المدير بالنيابة»[1].

(1) حياة في الإدارة، غازي القصيبي، ص19، ط2، 1999م، المؤسسة العربية للنشر، بيروت.

مقارنة

ويتحدَّث الدكتور عبد الرحمن بدوي عن بعض ناظري مدرسة السعيدية، التي درس بها المرحلة الابتدائية، ويعقد المقارنة بينهم فيقول: **«الناظر - الأستاذ عبد اللطيف محمود - كان أستاذًا فاضلاً عاقلاً ذا روية ونزاهة، يؤثر المجتهدين ويحرص على العلم، بعكس سلفيه: محمد رفعت ومحمد فهيم.. اللذين لم يكن لهما من هم واهتمام غير الألعاب الرياضية والفوز في مباريات كرة القدم!»**[1].

(1) **سيرة حياتي**: عبد الرحمن بدوي - ج1 - ص. ص (41 - 43) مرجع سابق.

نموذج للمدير المتميز

وهذا نموج متميز من المديرين، ينهض بمؤسسته التربوية بمفرده، وصفه ميخائيل نعيمة[1] فقال: «**اسكندر جبرائيل كزما الدمشقي المنبت والمولد، أو (المعلم اسكندر) كما كنّا نعرفه، ويعرفه زملاؤه من المعلمين ـ ذلك هو الرجل الذي أُنيطت به إدارة دار المعلمين الروسية في الناصرة منذ تأسيسها في أواخر القرن الماضي وحتى دخول الدولة العثمانية.. وإغلاقها جميع المؤسسات الروسية في الشرق، ولقد أحسن الإدارة فازدهرت المدرسة بقيادته وخرَّجتْ أفواجًا من المعلمين المدرَّبين أحسنَ تدريب. حتى أن الانكليز، بعد احتلالهم لفلسطين، لم يجدوا مناصًا من الاستعانة بأولئك المعلمين وخبرتهم في إدارة معارف فلسطين ومدارسها**»[2].

(1) ميخائيل نعيمة: (1889م ـ 1988م)، مفكر وشاعروقاص ومسرحي وناقد وكاتب مقال ومتفلسف في الحياة والنفس الإنسانية.

(2) **سبعون... حكاية عمر**، ميخائيل نعيمة، ج1، ص173، ط 10، دار نوفل، بيروت.

مدير سابق
بين يدي تلميذه القاضي

ويحكي لنا الطنطاوي حكايته مع مدير المدرسة السلطانية الأستاذ سعيد مراد وقد تبدلت بهما الأيام فيقول:

«كان للأستاذ سعيد مراد يومئذٍ هيبة في نفوسنا، بل رهبة، لعلو منزلته ولأنه المدير الأول، الذي يأمر وينهى هذه المجموعة الكبيرة من الأساتذة، وهذا الجيش المحشود من الطلاب..

ومرت الأيام الطويلة وصرت قاضي دمشق، وكنت يومًا على قوس المحكمة أنظر في قضايا الناس، والقاعة الكبيرة ممتلئة بالمحامين والمتقاضين والشهود والموظفين، وكلهم مستعجل يريد أن تُرى قضيته وينصرف، فنظرتُ من الشباك، فرأيت في ساحة المحكمة رجلاً كبير السن، قائمًا على قدميه، قد أحنى الدهرُ ظهرَه، فعرفت فيه مديرنا الأستاذ سعيد مراد.

فقلت للإخوان: أنا مضطر لرفع الجلسة عشر دقائق، ونزلت من فوق القوس، وخرجت من القاعة، وهم يحسبون أنني إنما خرجت لحاجة طبيعية عارضة، لا بد منها... فرأوني قد ذهبت إلى هذا الشيخ، فقبَّلت يده

وسألته أن يدخل معي لأقضي حاجته، إن كانت له حاجة. فدخل معي فأصعدته القوس إلى جانبي، وقلت للحاضرين: هذا شيخ المعلمين، وهذا أستاذي علّمني كما علّم آلافًا وآلافًا من أبناء هذه الأمة، أفلا ترون من حقه عليَّ وعليكم وعلى البلد أن أستمهلكم لأنظر لما جاء من أجله؟.

قالوا: نعم. وظهر الرضا على وجوههم، وبان أن في هذه الأمة لخيرًا كثيرًا. وأن الكرم والنبل لا يزال في أعماق قلوبها، ولكن ربما غطّت عليه المطامع أو هموم الأيام.

ونظرت في حاجته وقضيتها، فسألني: من أنت؟ قلتُ: انظر إليَّ لعلّك تعرفني فنظر ولكن بصره قد ضعف فلم يتبيني، فقلت له: أنا فلان. فذكرني ودعا لي وترحّم على أبي. وأوصلته إلى باب القاعة حتى خرج، ولا يزال منظر دموعه وهي تقطر من لحيته التي كانت يومًا شقراء فصارت بيضاء مثل الثلج. منظرًا لست أنساه وأحمد الله عليه»[1].

---

(1) الذكريات، الشيخ علي الطنطاوي: ج1، ص 462، مرجع سابق.

المعلم اللغوي

يقول الشيخ الطنطاوي في ذكرياته عن شيخه المبارك:

«**أما المبارك فقد كان الإمام في اللغة، والمرجع فيها، قَيَّد أوابدها وجمع شواردها، وحفظ شواهدها، وكان أعلم العرب بالعرب، عرف أيامهم[1] وروى أشعارهم، وكان المفرد العلم في بابته[2]، ولا أعرف نظيرًا له في العلماء، تحس إذ تجالسه وتسمع منه كان الأصمعي[3] وأبا عبيدة[4] قد تمثلا لك في جبته، وكأن ما كنت تقرؤه من أخبار الرواة والحفاظ، قد عاد لك حتى رأيته بالعيان.**

ولطالما دلَّنا على كتب، قرأتها وانتفعت بها، وهي رأس مالي في العلم والأدب ولولاه ما سمعت بها.

ثم درسنا الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية ثم درسنا السيرة فجاء بشيء ما رأيت والله ولا سمعت

---

(1) أيام العرب: حروبها.

(2) يقال: من بابة فلان، إذا كان من أشكاله ونظرائه.

(3) الأصمعي: (121هـ ـ 216هـ) راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان.

(4) أبو عبيدة؛ معمر بن المثنى التيمي: (110هـ ـ 210هـ) من مشاهير رواة الشعر العربي.

بمثله، يصور الوقائع، ويصف أمكنتها، ويشرح ما قيل فيها، ويدل على مراجعها، فكاننا كنا فيها»[1].

(1) **الذكريات**، الشيخ علي الطنطاوي، ج1، ص120، مرجع سابق.

محاكاة معلّم

ويحكي الطنطاوي مدى تأثره بالشيخ المبارك حتى أصبح يحاكيه دون شعور: «**لقد كنا نقلّد لهجته، ونحكي صوته، حتى صارت هي لهجتي في التدريس وأنا لا أدري.**

لما كنت أدرِّس في بغداد، أقيمت حفلة سمر في آخر سنة 1936م فسأل الطلاب مدرسيهم، على عادة اعتادوها: هل يأذنون لهم أن يقلدوهم؟.

فكان منهم من أذن، ومنهم من أبى، وكنت فيمن أذن، فقام طالب يقلدني بزعمه،ولكنه قلَّد شيخنا المبارك.

فقلت: ويحك هذا شيخنا المبارك.

وإذا الطلاب يصيحون من الأركان الأربعة: بل هذا أنت، هذا أنت.

وإذا أنا لطول ما حاكيت الشيخ قد صرت مثله.. أعني مثله في لهجته ونغمته، لا في علمه ولغته، أين أنا من علم الشيخ؟.

واتصل حبلي بحبله، إلى أن توفاه الله، أزوره في

داره، ويتفضّل فيشرفني بزيارتي في داري»[1].

وبين سطور هذه الحكاية نقرأ الطنطاوي الأستاذ الذي يتبسَّط مع تلاميذه ويسمح لهم بتقليده، وتمثيل حركاته، وطريقة كلامه، وتلك زاوية أخرى نرى منها الطنطاوي الأستاذ، حتى وهو يحكي لنا حكاية الطنطاوي التلميذ.

(1) المرجع السابق، ج1، ص120.

الأستاذ يترك مكانه للتلميذ

وهذه حكاية أخرى يرويها واحدٌ من أخص تلاميذ الشيخ الطنطاوي، الذي أصبح فيما بعد من أشهر الشخصيات المؤثرة في الحياة العامة بسورية؛ إنَّه صهره عصام العطار[1]، الذي قال في كلمته التأبينية للشيخ الطنطاوي التي نشرت في صحيفة الشرق الأوسط سنة 1999م: «**في سنة 1945 أو 1946 افتتح المعهد العربي الإسلامي في دمشق وحضرت فيه بعض دروس ودَعتْ إدارة المعهد مرة الأستاذ الطنطاوي لإلقاء درس أو محاضرة أدبية على طلبة صفوفه العليا وبعض أساتذته، وحضر الأستاذ الطنطاوي فألقى الدرس أو المحاضرة، ثم طلب إلى الحضور أن يسألوا أو أن يعقبوا على ما قال، وتكلمت كما طلب وكان لي نظرة غير نظرته، ورأي غير رأيه في بعض ما سمعناه منه، وبعد نحو دقيقتين أو ثلاث استوقفني وطلب إلي أن أقف بدله على المنبر، وأن يجلس بدلي على مقعد الدرس، فأبيت واستحييت فأقسم علي أن أفعل وقال لي بحرارة وحب: أنت أحق بأن**

(1) عصام العطار: (1927م - ....) سياسي وداعية إسلامي سوري.

يتلقى عنك، ثم التفت إلى الحضور وبينهم بعض الأساتذة وقال: والله لا أدري كيف يأتون بمثلي وعندهم هذا العالم الأديب.

ووقفت على المنبر ولم أتابع الحديث في ما كنت فيه، ولكنني تحدثت عن الأستاذ الطنطاوي وعن آثاره وخصائص أدبه حديث العارف المستوعب المتعمق، وهو ينظر إليَّ بدهشة ولا يكاد يصدِّق، فلما انتهيت قال لي: من أنت؟ قلت: عصام العطار.

قال: هل تعرف الشيخ رضا العطار؟

قلت: هو أبي، وكان أبي أيضًا من رجال القضاء»[1].

(1) صحيفة الشرق الأوسط، 4/ 7/ 1999م.

أستاذان في صف واحد

ومما يحلو لي ذكره هنا قصة الطنطاوي مع أستاذ آخر وقد دخل الطنطاوي لتقديم درسه فظنه الأستاذ الذي سبقه أحد تلاميذ الصف فكان هذا الموقف الطريف الذي رواه الطنطاوي عبر إذاعة الشرق سنة 1945م ونشره في كتابه (من حديث النفس) فيقول: **«لما كنت أعمل في العراق سنة 1936م نقلتُ من بغداد إلى البصرة إثر خصومة بيني وبين مفتش دخل عليَّ الصف فسمع الدرس. فلما خرجنا (نافق) لي فقال إنه معجبٌ بكتاباتي وفضلي.(ونافقت) له فقلتُ إني مكبرٌ فضله وأدبه. وأنا لم أسمع اسمه من قبل. ثم شرع ينتقد درسي فقلتُ: وَمن أنت يا هذا؟ وقال لي وقلتُ له..**

وكان مشهدًا طريفًا أمام التلاميذ.. رأوا فيه مثلاً أعلى من (تفاهم) بين أخوين، وصورة من التهذيب والأخلاق. ثم كتبتُ عنه مقالة كسرتُ بها ظهره، فاستقال (وطار) إلى بلده، ونُقلتُ أنا عقوبة إلى البصرة.

وصلتُ البصرة فدخلتُ المدرسة، فسألتُ عن صف «البكالوريا» بعد أن نظرتُ في لوحة البرنامج ورأيت أن الساعة لدرس الأدب. وتوجهتُ إلى الصف من غير أن أكلِّم أحدًا أو أعرِّفه بنفسي.

فلما دنوت من باب الصف وجدتُ المدرس، وهو كهل بغدادي على أبواب التقاعد، يخطب التلاميذ يودعهم وسمعته يوصيهم (كرمًا منه) بخلفه الأستاذ الطنطاوي، ويقول هذا وهذا ويمدحني... فقلتُ: إنها مناسبة طيبة لأمدحه أنا أيضًا وأثني عليه ونسيتُ أني حاسر الرأس وأني من الحر أحمل معطفي على ساعدي وأمشي بالقميص وبالأكمام القصار، فقرعتُ الباب قرعًا خفيفًا، وجئت أدخل، فالتفتَ إليَّ وصاح بي أيه زمال وين فايت؟ (والزمال الحمار في لغة البغداديين) فنظرتُ لنفسي هل أذناي طويلتان؟ هل لي ذيل؟.. فقال: شنو ما تفتهم (تفهم) أما زمال صحيح. وانطلق بـ(منولوج) طويل فيه من ألوان الشتائم ما لا أعرفه وأنا أسمع مبتسمًا.

ثم قال تعال لما نشوف تلاميذ آخر زمان. وقِّفْ احكْ شو تعرف عن البحتري. حتى تعرف انك زمال ولاً لا؟

فوقفتُ وتكلمتُ كلامًا هادئًا متسلسلاً، بلهجة حلوة، ولغة فصيحة. وبحثتُ وحللتُ وسردتُ الشواهد وشرحتها، وقابلتُ بينه وبين أبي تمام، وبالاختصار، ألقيتُ درسًا يلقيه مثلي.. والطلاب ينظرون مشدوهين.. ممتدة أعناقهم، محبوسة أنفاسهم، والمدرس المسكين قد نزل عن كرسيه وانتصب أمامي، وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما من الدهشة، ولا يملك أن ينطق ولا أنظر أنا إليه كأني لا أراه حتى قُرع الجرس..

قال: مَن أنت؟ ما اسمك؟ قلتُ: علي الطنطاوي؟

وأدع للسامعين[1] الكرام أن يتصوروا موقفه!»[2].

(1) قال: (السامعين) لأن المقالة أذيعت في أول الأمر من إذاعة الشرق سنة 1945م.

(2) **من حديث النفس**، علي الطنطاوي، ص.ص (119 ـ 120)، دار المنارة، جدة.

مستقبل سمير سرحان[1]
مرهون ببقرة الأستاذ فرغلي

وكما ظنَّ المعلم البغدادي أنَّ الطنطاوي أحد الطلاب، فقد تعرض الدكتور سمير سرحان لموقف مشابه، في أول يوم له في المدرسة التي وجِّه للعمل فيها، ولكن الناظر لم يكتف بالقول، بل جاوز ذلك، فأذاقه لسعاتٍ حارة بعصاه، في قصة طريفة حكاها سمير سرحان فقال: **«جاءني التعيين في مدرسة ثانوية تجارية بمدينة بنها مدرسًا للغة لإنجليزية.. ووجدت نفسي أركب قطارًا في السادسة صباحًا متجهًا إلى عملي بتلك المدينة الإقليمية التي لم أكن قد رأيتها من قبل وفي القطار انتابني الشعور بأن كل دقة من دقات عجلات القطار وهي تطوي القضبان كانت تمزق جزءًا من أجزاء شكسبير.. وتمزق معها كل أحلامه وفي حجرة المدرس الأولى بتلك المدرسة الريفية البسيطة قابلني الأستاذ فرغلي مهللاً ومستبشرًا.. (أنت إذًا مدرس الإنجليزي الجديد.. مرحبًا يا**

(1) سمير سرحان: (1941م - 2006م)، أديب مصري. له إسهاماته الكثيرة والمتنوعة في مختلف مجالات الثقافة.

ولدي مرحبًا.. أمامك العمر.. أمامك أغلى حياة.. سوف تسعد معنا هنا.. وعندي من أجلك المشاريع).

لم أسمع ما قال وإنما هتفت نفسي مع شكسبير.. (أكون أو لا أكون.. تلك هي المعضلة)!

أردف الأستاذ فرغلي.. (وستكون على خير حال.. ولأنك سمح الوجه.. طيب القلب كما أراك.. سأشاركك على بقرة.. تدفع من ثمنها بعضًا من راتبك كل شهر.. تلد لنا.. نبيع صغارها ونجني من وراء بيع لبنها ما يسبغ علينا الستر فيما يتلو من أيام..

ولأنك ـ كما أراك ـ سمح الوجه طيب القلب.. فلا مانع عندي من أن أزوجك من ابنتي.. تعيش هادءًا هانئًا سعيدًا.. طوال الأيام).

لم أطق صبرًا على احتمال تلك الصورة التي رسمها لحياتي رئيسي مدرس أول اللغة الإنجليزية لتلك المدرسة الريفية حين وصلت إليها في ذلك الصباح في عام 1961م ولم أكن لأتصور أن تنحصر اهتماماتي فيما يأتي من أيام العمر في تدريس تلاميذ المدارس مبادئ اللغة الانجليزية مع قضاء أوقاتي في خارج المدرسة في تسمين البقرة وحلب لبنها وبيع نسلها.. والزواج من ابنته الريفية التي تقتصر مهمتها على أن تملأ فناء بيتي أولادًا وبناتًا حتى نعيش في ثبات ونبات.

كانت هذه الصور للمستقبل قد أصابتني بغم وكرب شديدين وتناقضت كل التناقض مع كل ما كنت أحلم به

على قهوة عبد الله بالجيزة وسط كل الأسماء اللامعة من كبار المثقفين الذين خالطتُهم ممن يشكلون وجدان وعقل الوطن ويرسمون بأقلامهم وفكرهم عالمًا أرحب وأوسع بكثير من عالم الزوجة والبقرة.

خرجت من حجرة المدرسين رافضًا أن ألقي درسي الأول كما تقرر لي في جدول المدرسة وأنا عازم على الاستقالة الفورية.. ولو كلفتني ذلك أن أقطع بيدي مصدر رزقي وأقفز دفعة واحدة إلى المجهول.. ولكني كنت مطمئن القلب إلى أن الرزق ـ على أي حال ـ بيد الله.. وأن الله قد حباني ببعض القدرات التي لن أعدم أن أستخدمها لأكل قوت يومي.. لكني أبدًا لن ألقي بنفسي مختارًا في براثن ذلك المدرس الأول.. وابنته.. وبقرته..

واتجهت إلى حجرة ناظر المدرسة لأقدم استقالتي وأمضي فقيل لي إن الناظر في مرور على الفصول.. وعلي أن أنتظر في الفناء المقابل؛ وفي الفناء وقفت وحدي برهة وسط هدوء شامل وعميق.. كان التلاميذ ومدرسوهم في الفصول.. ولم يكن يقطع الصمت الرهيب إلا زقزقة بعض العصافير وإحساس عميق بالحرية. كانت أيام الخريف تضفي على الهواء مسحة رمادية رقيقة إيذانًا بمقدم الشتاء.. ولسعة هواء باردة تلفح الوجه بين الحين والآخر فتنتعش لها النفس.

ومع نسمة الهواء البارد.. وقراري أن أهرب بجلدي من تلك المصيدة التي نصبها لي رئيسي المدرس الأول،

ولو كان الثمن أن أقفز إلى المجهول كان إحساسي بالحرية عميقًا عميقًا.. وبأنه لا الوظيفة ولا أي شيء آخر يعدل حريتي.. وما اختطته لنفسي من آمال.

صاح صوت خلف ظهري وأنا أستمتع بذلك الإحساس العميق بالحرية.

- أدخل فصلك يا ابن الـ..

وقبل أن ألتفت لأرى من الذي يوجه إلي هذا السباب المفاجئ انهالت على ظهري ضربات عصا رفيعة لاذعة تكاد تمزق لحمي من تحت القميص القطني الخفيف.. والتفت مذعورًا ناحية العصا وصاحبها.. فوجدت رجلاً طويل القامة أحمر الوجه أصفر الشعر أشعثه قد كشر عن أنيابه.. وعاود الصياح:

- لماذا لا تدخل فصلك.. يا بن الـ..

ذهلت وهرع المدرس الأول صاحب فكرة تربية البقرة إلى حضرة الناظر متوسلاً:

- يا حضرة الناظر.. إنه ليس واحدًا من تلاميذ المدرسة.. إنه المدرس الجديد للغة الإنجليزية.

فجاة اختفى من على قسمات وجه(حضرة الناظر) ذلك التعبير المرعب الذي يقترب في وحشيته من تعبير الأسد أو النمر ساعة الانقضاض على الفريسة.. وألقى بعصاه الرفيعة التي يؤدب بها المارقين من تلاميذه.. واحتضنني وهو يضحك ملء شدقيه قائلاً:

- يا أخي.. شكلك صغير.. فما ذنبي؟!

التفت إليه مدرس أول اللغة الانجليزية وقال:

- يا حضرة الناظر.. سوف يعيش الأستاذ الجديد معنا كواحد من أفراد الأسرة.

وتذكرتُ صورة (الأسرة) وما تحتوي عليه من هناء عائلي كما رسمها لي الأستاذ فرغلي المدرس الأول للغة الانجليزية بتلك المدرسة الريفية فأطلقت ساقي للريح»![1]

(1) **أيام العمر الجميل**، سمير سرحان، ص. ص (33 ـ 38)، ط1، 2003م، أطلس للنشر، القاهرة.

الأستاذ البهي الخولي

وعلى طريقة الشيخ الطنطاوي يتحدث الشيخ يوسف القرضاوي عن أستاذه في المرحلة الابتدائية (البهي الخولي)[1] فيقول: «**في هذه السنة تعرفت على أستاذ جليل كان يدرس لنا مادة المحفوظات. وكانت هذه الحصة حصة للراحة لمن يأخذها من المدرسين، ولكن هذا الأستاذ حوَّل هذه الحصة إلى محفوظات حقيقية؛ في كل أسبوع يختار لنا قطعة من النثر أو الشعر لنحفظها ويسوقنا بالترغيب والترهيب لحفظها.**

وأذكر أن أول قطعة طلب منًّا حفظها، وكتبها لنا على السبورة كانت من أدب المنفلوطي، ومن موضوع (الرحمة) في كتابه (النظرات).

«ارحم الحيوان، فإنه يحس كما تحس، ويتألم كما تتألم، ويبكي بغير دموع، ويتوجع ولا يكاد يبين. ارحم الطير لا تحبسها في أقفاصها، أطلقها وأطلق سمعك وبصرك وراءها، فتراها أجمل من الفلك الدائر، والكوكب السيار».

كما أعطانا فقرات من قصيدة حافظ إبراهيم (العمرية)

---

(1) الشيخ البهي الخولي: (1901 ـ 1977م) مفكر وكاتب وداعية إسلامي مصري، وأحد مؤسسي جماعة الإخوان المسلمين.

وقد كان مزهوًا بها، وكان يشرحها لنا شرح المتيم بشخصية عمر ومواقفه وروائعه، وشرح المربي الذي يوجه الطلاب إلى القيم العليا مجسدة في مواقف. وأذكر من هذه الرائعة العمرية هذه الأبيات في رحلة عمر إلى فلسطين:

ماذا رأيت بباب الشام حين رأوا
أن يلبسوك من الأثواب زاهيها
ويركبوك على البرذون تقدمه
خيل مطهّمة تحلو مرائيها
مشى فهملج مختالاً براكبه
وفي البراذين ما يزهي بعاليها
فصحت: ياقوم كاد الزهو يقتلني
وداخلتني حالٌ لست أدريها
وكاد يصبو إلى دنياكمو عمرٌ
ويبتغي بيع باقيه بفانيها
ردوا ركابي فلا أبغي به بدلاً
ردوا ثيابي فحسبي اليوم باليها

وهكذا كانت دروس المحفوظات دروسًا في الأدب والتربية والسلوك.

نسيت أن أقول: هذا الأستاذ هو الشيخ الداعية المربي البهي الخولي، خريج دار العلوم، وزميل الأستاذ حسن البنا»[1].

(1) ابن القرية والكتاب، د. يوسف القرضاوي، ج1،ص. ص (166 ـ 167)، مرجع سابق.

أماني الطلبة وأحلامهم

ويحدثنا أيضًا الشيخ القرضاوي عن أحد ظرفاء المعلمين فيقول: «ومن الطرائف التي أذكرها: أن جاءنا أحد المشايخ ونحن في السنة الأولى الثانوية، في حصة إضافية، وكان شيخًا ظريفًا صاحب نكتة، فأراد أن يتسلى مع الطلاب، فقال: أريد من كل طالب منكم أن يذكر أمنيته التي يريد أن يحققها في حياته، وفي مستقبل أيامه: ماذا يريد أن يكون؟

وطفق الطلبة في الفصل يذكر كل منهم ما يريد أن يكون في مستقبل حياته، فقال أحدهم: أريد أن أكون ضابطًا في الجيش. وقال له الشيخ: ستكون إن شاء الله خفيرًا حارسًا على مقابر الموتى.

وقال أحد الطلاب: أريد أن أكون مدرسًا في ثانوي الأزهر مثل فضيلة الشيخ. وقال الشيخ: ستكون معلم كتاب في قريتكم!.

حتى جاء عندي وقال لي: وأنت ماذا تريد؟

قلت له: اسمح لي يا فضيلة الشيخ أن أصارحك بما أريد، إني أريد أن أكون شيخًا للأزهر!

وتوقع الطلاب أن يعلق الشيخ الساخر على

طريقته، وخصوصًا مع غرابة الأمنية، ولكنه فاجأ الجميع بقوله: لا تستبعدوا هذا يا أولاد. فكم من أمل كبير قد تحقق، وكم من حلم بعيد أصبح حقيقة، وفي التاريخ وفي الواقع أمثلة كثيرة لأناس حلموا أحلامًا ظنها الناس من شطحات الخيال، أو من توقعات المحال، اجتهد أصحابها وجاهدوا حتى وصلوا إليها»[1].

(1) المرجع السابق، ص.ص (210 ـ 211).

مزايا وعيوب

ويحدثنا الكاتب الكبير عباس العقاد[1] في كتابه (أنا) عن أحد معلميه فيقول: **«كان الأستاذ الفاضل مدرس اللغة العربية والتاريخ الشيخ محمد فخر الدين، وكان «الإنشاء» صيغًا محفوظة في ذلك الحين كخطب المنابر وكتب الدواوين، ولكنه كان يبغض الصيغ المحفوظة وينحي بالسخرية والتقريع على التلميذ الذي يعتمد عليها، ويمنح أحسن الدرجات لصاحب الموضوع المبتكر وأقل الدرجات لصاحب الموضوع المقتبس من نماذج الكتب، وإن كان هذا أبلغ من ذاك وأفضل منه في لفظه ومعناه.**

وكان درسه في التاريخ درسًا في الوطنية.. فعرفنا تاريخ مصر، ونحن أحوج ما نكون إلى شعور الغيرة على الوطن والاعتزاز بتاريخه، لأن سلطان الاحتلال الأجنبي كان قد بلغ يومئذٍ غاية مداه..»[2].

(1) عباس محمود العقاد: (1889م ـ 1964م) إمام في الأدب، مصري من المكثرين كتابة وتصنيفًا مع الإبداع.

(2) **أنا**، عباس محمود العقاد، ص 57، د.ط.ت، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.

الشعراوي في المعهد الأزهري

ويروي لنا الشيخ الشعراوي هذه الحكاية مع مدير المعهد الأزهري فيقول: «**ذات مرة تأخر القطار بعض الوقت.. ووصلت إلى المعهد بالزقازيق متأخرًا.. فرأيت شيخ المعهد جالسًا كعادته على بابه.. وحاولت الإفلات منه، لكنه كان قد لمحني فقال لأحد السعاة: هات الواد ده هنا.**

وسألني: لماذا تأخرت؟ فقلت له إن القطار تأخر نصف ساعة، وليس أنا.

فسألني: ولماذا لا تحتاط، وتأتي مساء الجمعة، بدلاً من فجر السبت؟

فقلت له: أنا متزوج يا سيدي..

فسألني: والجواز كويس واللا وحش؟ فخشيت أن أقول كويس، فيعتبرني قليل الأدب.. فقلت له: والله قلة قيمة.

فقال لي: ادخل، وإياك تتأخر تاني.

وانتهى الموقف عند هذا الحد.. ولكن عندما رآني صباح اليوم التالي ولم أكن متأخرًا، وجدته يناديني: يا ولد.. قلة قيمة، قلة قيمة.

وكررها أكثر من ثلاث مرات.. وكان ينتهي في كل مرة بعبارة بس خلاص اسكت.. وسأله المشايخ الذين يدرسون لي: إيه حكاية قلة القيمة دي؟

فقال: أنا سألت الشعراوي عن الزواج امبارح، فقال دا قلة قيمة.. وبعد أن عدت لبيتي وجدته قلة قيمة بصحيح.

وهذه المسألة جعلت المشايخ يعتقدون أني قريب شيخ المعهد، ويتبادل حديثًا شخصيًا معي. وكان يسأل الشيخ محمد سرور والشيخ مرسي سليم وغيرهما عني، فكانوا يؤكدون أنني طالب مجتهد.. وهذا الوضع جعلني أكتسب مكانة خاصة عندهم، وأصبحوا يطلبون مني الخطابة في كل مناسبة.

فاعتدت عليها، وشجعني هذا على تشكيل لجنة أدبية كانت تضم الدكتور عبد المنعم خفاجي[1]، والشيخ حسن جاد، والأستاذ طاهر أبو فاشا[2].. وأصبحت لي مكانة متميزة في مدينة الزقازيق»[3].

---

(1) د. عبد المنعم خفاجي: (1915م ـ 2006م) أزهري عالم بالتفسير واللغة والأدب، له في ذلك مؤلفات جاوزت الخمسمئة.

(2) طاهر أبو فاشا: (1908م ـ 1987م) أديب وشاعر وزجال مصري.

(3) مذكرات إمام الدعاة، إعداد: محمد زايد، ض. ص (92 ـ 93)، مرجع سابق.

من طرائف المعلمين

في بعض الأحيان يرفع المعلم التكليف بينه وبين تلاميذه بعض الشيء، ليتحبب إليهم، ويروي لهم بعض النوادر، وكثيرًا ما يكون هو بطلها، ومما يحكيه المعلمون لتلاميذهم من طرائف، ينقل لنا الشيخ القرضاوي الحكاية التالية: **«حكى لنا الشيخ أبو الروس: أنه تزوج مبكرًا، وكان له أبناء يدْرسون، وهو يدرس أيضًا، فكلهم طلبة، يقول الشيخ: فقد تكون النتيجة في بعض الأحيان أن أرسب أنا وينجح الأولاد، وأحيانًا يعرف زملاؤهم ذلك، فيقولون معيِّرين لهم: يا أولاد الساقط!»**[1].

---

(1) **ابن القرية والكتاب**، د. يوسف القرضاوي، ج1، ص 411، مرجع سابق.

سوء فهم بين القرضاوي والشعراوي

وهنا أسوق قصة خلاف عارض بين علمين من أعلام الفقه والتفسير والأدب، حين استطاع الانتماء السياسي أن يوقع بينهما، ومع ذلك تبقى لغة الإنصاف والمودة هي اللغة التي حكى بها الشيخ القرضاوي قصة الخلاف هذه مع الشيخ الشعراوي فيقول: «**وأهم من درسني في المرحلة الثانوية، هو: الشيخ محمد متولي الشعراوي. وقد كان في تلك الفترة من حياته معروفًا بالشعر والأدب، ولم يكن معروفًا بالدعوة الدينية. وكان للشعراء مجال يبرزون فيه ويتنافسون، ويظهر كل منهم أنفس ما عنده من جواهر، وذلك في مناسبة الاحتفال بالهجرة النبوية أول محرم من كل عام. ويتبارى فيه الخطباء والشعراء من الأساتذة ومن الطلاب**

جاء الشيخ الشعراوي إلى معهد طنطا الثانوي، وأنا في القسم الابتدائي، واستمر يدرس فيه (علم البلاغة) لطلاب الثانوي، إلى أن وصلت إلى السنة الرابعة الثانوية، التي يدرس فيها الشيخ البلاغة من كتاب (تهذيب السعد) قسم (علم المعاني).

وكان الشيخ الشعراوي مدرسًا ناجحًا تمامًا، متمكنًا

من مادته، حسن التعبير عن مراده، محترمًا من الطلاب، قادرًا على ضبط الفصل، يتحرك يمنة ويسرة في أثناء شرحه، أشبه ما يكون بطريقته في دروس التفسير التي شهدها الناس منه بعد ذلك في حلقات (التلفزة).

وكان الشيخ الشعراوي من الناحية السياسية محسوبًا على حزب الوفد، ومعدودًا من رجاله، ولكنه - والحق يقال - لم يكن من الحزبيين المتفلتين، فقد كان رجلاً ملتزمًا بشعائر الدين، محافظًا على الصلاوات في أوقاتها، هو وزميله وصديقه الذي كان يدرسنا (تاريخ الأدب العربي) بقدرة وجدارة الشيخ المنوفي.

وكان حزب الوفد في هذه المرحلة في تنافس شديد، وصراع حار، مع جماعة الإخوان، فكلاهما يريد أن يكسب الشارع المصري إلى صفه. وبعد أن كان الوفد هو المسيطر على الشارع، وهو الذي يحرك الرأي العام إذا أراد، أصبح له في الميدان منافس قوي شديد البأس، يقود الجماهير باسم الإسلام، ويكسب كل يوم منه أرضًا جديدة، ويخسر الوفد جزءًا من جمهوره التقليدي.

وهذا الصراع انعكس على طلاب الوفد وطلاب الإخوان في المعاهد والمدارس والجامعات. وكان الإخوان أقوى صوتًا، وأشد تأثيرًا، بمن لهم من ممثلين أقوياء، مثل مصطفى مؤمن زعيم طلاب جامعة القاهرة، أو قل: زعيم طلبة مصر كلها، والخطيب السياسي الجماهيري الذي يسحر الألباب.

ويبدو من سياق الأحداث أن الشيخ الشعراوي قد شحن من قبل بعض المشايخ والطلبة الوفديين في المعهد، ضد طلاب الإخوان، وأنهم حذروه منهم، وأنهم قد يشغبون عليه في درسه أو نحو ذلك.

ومن دلائل ذلك: أني سألت الشيخ في أثناء درسه في البلاغة سؤالاً علميًا بريئًا، كما أفعل مع كل أساتذتي، فأنا بطبيعتي أحب أن أفهم، وأحب أن أناقش، ولا آخذ كل شيء قضية مسلمة، ولكن الشيخ الشعراوي رأى السؤال تحديًا له، واستشاط غضبًا، ظهر على صفحات وجهه، وقال لي يرد على التحدي ـ في نظره ـ بتحد مثله أو أقوى منه: اسمع يا يوسف، إن كنت ريحًا فقد لاقيت إعصارًا!! فقلت له: والله ما قصدت غير السؤال العلمي البحت، ولم يتجه تفكيري إلى ما فهمته قط.

وكان هو السؤال الأول والأخير، فلم أحاول أن أسأله بعد ذلك، حتى لا يسيء فهمي. ومضت السنة الدراسية، وجاء الامتحان، وكان من نزاهة الشعراوي أن منحني أعلى درجة في الفصل»[1].

---

(1) ابن القرية والكتاب، د. يوسف القرضاوي، ج1، ص.ص (203 ـ 205)، مرجع سابق.

الغزالي يعترض على أستاذه

وهذا خلاف آخر نشب بين تلميذ من أعلام الفكر المعاصرين وأستاذه، ولكن السبب هذه المرة شيءٌ آخر غير السياسة؛ هذا ما يحكيه لنا الإمام الغزالي فيقول: «**وجمعنا عميد الكلية في مسجد (الخازندارة) في حفل عام للتعارف واستقبال العام الجديد، وتوثيق العرى بين الطلاب وهيئة التدريس، وحدث في هذا الحفل أمر ذو بال، فقد كان بين من تحدثوا الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة والأخلاق بالكلية، وجرى على لسانه ثناء حار على المجتمع الفرنسي، وتنويه بما يسوده من أمانة ونظام، وأهاب بنا أن نتمسك بهذه الخلال..!!.**

وغاظني ما سمعت، فانتفضت قائمًا أصيح: أي خلال يا أستاذ؟ هؤلاء تقدموا في اللصوصية، اللص عندنا يسرق آنية من بيت، أو حافظة من جيب، أو ثمرة من حقل، وهؤلاء يسرقون الشعوب تحت الشمس، ويختلسون العقائد من القلوب!! أي خلال تعني يا أستاذ نلتمسها من هؤلاء المعتدين على إخواننا في أقطار المغرب ـ وكانت كلها محتلة؟ ـ ولماذا لم تذكرنا بسلفنا العظيم؟

وانطلقت وقادوني إلى عميد الكلية الشيخ عبد المجيد اللبان فرأى شابًا في العشرين أفقده الحماس وعيه، فقال لي بصوت وديع: اقعد يا ولد!! فجلست أمامه، وكلف شيخًا آخر بالتحدث إلى الطلاب الذين بدا أنهم متعاطفون معي، بل بدا أن أكثر المدرسين لم يستريحوا إلى توجيه الدكتور محمد يوسف، وأنهم يؤيدون موقفي..!!

لم يعاقبني عميد الكلية مكتفيًا بإسداء بعض النصائح، وصرفني بعد انتهاء الحفل..

والغريب أن علاقتي بالأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى توطدت، وكنت فيما بعد أثيرًا عنده، وطيلة مدة الدراسة بالكلية لم أستغن عن توجيهه وإرشاده، وبعد التخرج نَمَتْ بيننا صداقة عميقة وتعاون في خدمة الدعوة الإسلامية»[1].

(1) مجلة (إسلامية المعرفة)، ص. ص (165 ـ 166)، مرجع سابق.

نقاش حاد بين
الغزالي وأمين الخولي

ويدعونا الاستطراد في الحديث عن الخلاف والإنصاف إلى تسجيل هذا اللقاء بين الشيخين محمد الغزالي الباحث عن وظيفة، وأمين الخولي مُجري المقابلة مع المتقدمين لتلك الوظيفة، وقد سجل الإمام محمد الغزالي هذا اللقاء في مذكراته التي نُشرت مقتطفاتٌ منها في مجلة (إسلامية المعرفة) فقال: «**وحصول الأزهري على عمل كان على عهدنا شيئًا بعيد المنال، وهذا جزءٌ من خطة محكمة لتخريب الأزهر، وصرف الناس عن التعليم الديني كله.. ولاح الأمل عندما أعلنت وزارة الأوقاف عن مسابقة بين خريجي الأزهر لشغل وظائف (الإمامة والخطابة والتدريس) الخالية بمساجدها..**

وتقدمت للمسابقة مع مئات كثيرة من (العلماء العاطلين) وكانت تحريرية وشفوية..

وفي الامتحان الشفوي وقعت بيني وبين أعضاء اللجنة مجادلة حادة، بدأت بعمل مني كان طائشًا.. كان أحد الأعضاء يسألني في القرآن الكريم، وكنت أحفظه جيدًا، وأجبت عن كل ما سُئلت عنه، والرجل يتابعني في

مصحف كبير أمامه، ويتنقل بي من صفحة إلى صفحة وأنا ماضٍ في التلاوة..

ورئني في كلمة، فتوقفت ثم مددت بصري إلى المصحف الذي معه، فقال لي بدهشة: ماذا تفعل؟ قلت: أريد أن أستوثق هل أخطأت حقًا؟ فأنا أحفظ جيدًا..!

وشتمني رئيس اللجنة ـ وكان الأستاذ أحمد حسين أخا طه حسين ـ وهو يومئذٍ مفتي الأوقاف.

وجاء دور الأستاذ أمين الخولي الذي طلب مني تفسير آيات قرأتها، وأجبت فخطأني وذكرت رأيًا آخر في التفسير فخطأني، فقلت وأنا أضبط أعصابي: وددت لو أعرف الحق، فقد ذكرتُ كل ما أعرف! قال: ذلك في قاعة الدرس لا في لجنة الامتحان.

وتدخل مدير المساجد الشيخ سيد زهران قائلاً للشيخ أمين: لقد اعترف الطالب بعجزه فدُله على الجواب! فقال مرة أخرى: ليس هنا..

فقلتُ بنزق: لا جواب إلا ما قلتُ، وأتحدى إذا كان هناك جوابٌ آخر!

وعاد الشيخ أحمد حسين إلى توبيخي، أما الأستاذ أمين الخولي فادار ظهره معرضًا عني ومنهيًا المناقشة.

ولكن سؤالاً وُجّه إليَّ من مدير المساجد: ألق الخطبة التي أعددتها، فقلت: اقترح أيَّ موضوع أتحدث فيه، وقمت فتحدثت في موضوع اقترحه وانصرفت..

وظهرت النتيجة بعد أسبوعين، وكنت الخامس بين الناجحين، وتم ذلك بما يُشبه خوارق العادات،! وعُيِّنْتُ إمامًا وخطيبًا ومدرسًا بمسجد «عَزْبان» بالعتبة الخضراء، ولم يلق هذا الحظ أحدٌ من زملائي معي!»[1]

ومن خلال هذا الموقف نتعلمُ درسًا في التسامح مع المخالف، والإنصاف، ونبذ الضغينة، فها هو الغزالي يأخذ حقه، برغم حدته وتجاوزه مع ممتحنيه، ولكنها النفوس الكبيرة..

(1) مجلة **(إسلامية المعرفة)** ص.ص (177 ـ 178) مرجع سابق.

القرضاوي يخالف أستاذه

ومن الطبيعي أن تختلف وجهات النظر بين المعلمين وتلاميذهم خصوصًا عندما يكون التلاميذ مبرِّزين ولهم رؤية، لا يترددون في الإفصاح عنها، فيتقبل الأساتذة هذه المخالفة، أو يرفضونها، ومن ذلك ما وقع للشيخ القرضاوي مع أستاذ التفسير من اختلاف إذ يقول: **«ومما وقع في السنة الأولى: أني اصطدمتُ بأستاذي في التفسير، وهو الشيخ محمد مختار بدير. وكان الشيخ بدير رجلاً قارئًا مطلعًا أديبًا شاعرًا، ولكنه ضاق صدره بنقاشي، في قضية علمية عرض لها، خالفته فيها وهي: هل كانت دعوة نوح عليه السلام عالمية أو لا؟ وقد رجح الشيخ أنها عالمية، بدليل أن الطوفان عمَّ العالم، فلو لم تكن عالمية ما عوقب العالم كله بالطوفان.. وكنت في مناقشتي معتمدًا على النصوص المسلَّمة، فالقرآن يقول:** ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ **[نوح/ 1]، والحديث المتفق عليه عن جابر في الخصائص المحمدية: «وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبعثتُ إلى الناس كافة».**

ولكن في اليوم التالي لقيني الشيخ هاشًا باشًا، وقال: لقد ظلمتك يا قرضاوي، وراجعتُ المسألة فوجدتُ

الحقَّ معك وقد سألتُ عنك فعرفتُ أنك من أهل العلم، كما علمتُ أنك شاعرٌ مثلي.

وانعقدت بيني وبين الشيخ بدير مودة عميقة، وكان كثيرًا ما يشيد بي ويثني علي عند زملائه من علماء الكلية»[1].

(1) ابن القرية والكتاب، د. يوسف القرضاوي، ج1ص.ص (410 ـ 411)، مرجع سابق.

العقاد يحل ما عجز عنه الأستاذ

ويتحدث العقاد عن موقف معلم الحساب والهندسة وتجاهله جهد تلميذه في حل مسألة استعصت على الحل فيقول: «كان أستاذ الحساب والهندسة والرياضة. ولا داعي لذكر اسمه في هذا المقام..

كان يؤمن بالخرافات وشفاعات الأولياء، وكان محدود الفهم في دروسه ولا سيما المسائل العقلية في دروس الحساب

.. ولكن الدرس الأكبر - الدرس الذي أحسبه أكبر ما استفدته من جميع الدروس في صباي - كان بصدد مسألة حسابية من تلك المسائل العقلية.. كنت شديد الولع بهذه المسائل لا أدع مسألة منها بغير حل مهما بلغ إعضالها..

وكان الأستاذ يحفظ منها عددًا كبيرًا محلولاً في دفتره يعيده على التلاميذ كل سنة، وقلما يزيد عليه شيئًا من عنده..

وعَرَضَتْ في بعض الحصص مسألة ليست في الدفتر، فعالجنا حلها في الحصة على غير جدوى، ووجب في هذه الحالة أن يحلها الأستاذ لتلاميذه فلم

يفعل، وقال على سبيل التخلص: «إنما عرضتها عليكم امتحانًا لكم، لتعرفوا الفرق بين مسائل الحساب ومسائل الجبر، وهذه من مسائل الجبر لأنها تشتمل على مجهولين».

لم أصدّق صاحبنا ولم أكُفّ عن المحاولة في بيتي، وقضيت ليلة ليلاء حتى الفجر وأنا أقوم وأقعد عند اللوحة السوداء حتى امتلأت من الجانبين بالأرقام.. وجاء الفرج قبل مطلع النهار، فإذا بالمسألة محلولة وإذا بالمراجعة تثبت لي صحة الحل، فأحفظ سلسلة النتائج وأعيدها لأستطيع بيانها في المدرسة دون ارتباك أو نسيان.

قلت: لقد حللت المسألة.

قال الأستاذ: أية مسألة؟

قلت: المسألة التي عجزنا عن حلها في الحصة الماضية.

قال: أو صحيح؟.. تفضل أرنا همتك يا «شاطر».

وحاول أن يقاطعني مرة بعد مرة، ولكن سلسلة النتائج كانت قد انطبعت في ذهني لشدة ما شغلتني وطول ما راجعتها وكررت مراجعتها.

وانتظرت ما يقال..

فإذا الأستاذ ينظر إليَّ شزرًا وهو يقول: لقد أضعت وقتك على غير طائل، لأنها مسألة لن تعرض لكم في الامتحان.

كانت هذه صدمة خليقة أن تكسرني كسرًا، لو أن اجتهادي كان محل شك عندي أو عند الأستاذ أو عند الزملاء، أما وهو حقيقة لا شك فيها، فإن الصدمة لم تكسرني بل نفعتني أكبر نفع حمدته في حياتي، وصح فيها قول نيتشه[1]: «إن الفضل قيمته فيه لا فيما يقال عنه، أيًا كان القائلون» ولم أحفل بعدها بإنكار زميل أو رئيس»[2].

(1) نيتشه: (1844م ـ 1900م) فيلسوف وشاعر ألماني.

(2) أنا، عباس محمود العقاد، ص. ص (57 ـ 60)، مرجع سابق.

نبوءة الإمام محمد عبده

ويتحدَّث العقاد عن تشجيع أساتذته له ونبوءة الشيخ محمد عبده فيقول: **«كان أستاذنا في اللغة العربية والتاريخ الشيخ فخر الدين محمد الدشناوي يعرض كراساتي التي أكتب فيها موضوعات الإنشاء على كبار الزوار لمدرسة أسوان، وكان كبار الزوار لهذه المدارس أكثر عددًا وأعظم شأنًا من كبار الزوار لمدارس القطر كله، لأن أسوان كانت قبلة العظماء والكبراء من جميع الأرجاء في موسم الشتاء. واطلع الأستاذ الإمام الشيخ(محمد عبده)على إحدى هذه الكراسات فقال: «ما أجدر هذا أن يكون كاتبًا بعد!..» فكانت هذه الكلمة أقوى ما سمعت من كلمات التشجيع»**[1].

وتشبه هذه النبوءة نبوءة أحد شيوخ الدكتور يوسف القرضاوي في صباه وهو الشيخ بيومي العزوزي، إذ يروي القرضاوي قصته تلك فيقول: **«وكان الشيخ بيومي يعمل كاتبًا في إحدى الدوائر الزراعية في القرية، وكان رجلاً ذكيًا له قراءة في فقه الشافعية، واطلاع على (الإحياء)،**

(1) أنا، عباس محمود العقاد، ص. ص (69 ـ 70)، مرجع سابق.

وكان يحبني ويعتز بي ويناديني دائمًا بكنية التزمها، كلما جاء إلى دارنا ونادى من بعيد: يا أبا يوسف. قلت له: أنا يوسف ولست أبا يوسف! قال: ولكني أناديك بهذا وأقول لك ما قاله أبو حنيفة[1] لصاحبه أبي يوسف[2]: لتأكلن الفالوذج على مائدة الملوك!»[3].

(1) أبو حنيفة: (80هـ ـ 150هـ)، إمام في الفقه، وإليه يُنسب المذهب الحنفي.

(2) أبو يوسف: (113هـ ـ 182هـ)، أحد أهم علماء المذهب الحنفي.

(3) **ابن القرية والكتاب**، د. يوسف القرضاوي، ج1، ص29، مرجع سابق.

نبوءة

وهذه نبوءة أخرى يحكيها الدكتور سهيل إدريس عن أستاذيه محمد عمر الداعوق، وعلي الطنطاوي فيقول: **«والحق أن الشيخ الداعوق، الذي علمنا الإنشاء فترة من الزمن، قد تنبأ من بعض فروضي التي صححها أنني سأمتهن الكتابة. كما تنبأ بذلك الشيخ علي الطنطاوي، الذي درَّسنا الأدب في الكلية الشرعية مدة عامين فجعلنا نتذوقه ونحبه. وكنت أتمنى دائمًا أن تنشر لي مجلة الرسالة المصرية بعض إنتاجي كما كانت تنشر لأستاذي علي الطنطاوي»**[1].

(1) **ذكريات الأدب والحب**، سهيل إدريس، ص. ص (42 ـ 43)، ط1، 2002م، دار الآداب، بيروت.

نبوءة الطنطاوي
لعبد الرحمن رأفت الباشا[1]

وهذه نبوءة الطنطاوي لتلميذه الأديب الكبير عبد الرحمن رأفت الباشا، ولكن الذي يروي النبوءة هذه المرة الأستاذ وليس التلميذ، ذكرها الشيخ الطنطاوي في معرض نعيه لتلميذه الفذ وقد ورده نبأ وفاته، في شهر يوليو عام 1986م، وهو يكتب الحلقة (206) من ذكرياته، فتحول عن سرد الذكريات إلى الحديث عن تلميذه وفاجعة موت الأصدقاء التي تمطرنا بها الأيام فقال: «... **سقطت الجريدة من يدي ولم أستطع أن أتمَّ الخبر، وفركتُ عينيَّ، وقلتُ لعلَّ بصري يكذبني، ويريني ما لا يرى، وعدت فأعدتُ قراءة الخبر... وتصورت الأستاذ عبد الرحمن رأفت الباشا، وقد امتلأ أديمه بالحياة، وفاضتْ نفسه بالنشاط، وتخيلتُهُ بين تلاميذي، وكنت أقول له على مشهد ومسمع من رفاقه: «إنك يا عبدالرحمن أديبٌ وسيكون لك شأن» .وقد كان، فكتب وخطب وعلَّم..»**[2].

(1) عبد الرحمن رأفت الباشا: (1920هـ ـ 1986هـ)، أديب وأستاذ جامعي، ورئيس رابطة الأدب الإسلامي حتى وفاته.

(2) **الذكريات**، الشيخ علي الطنطاوي، ج7، ص291، مرجع سابق.

سذاجة معلمٍ

ويبقى المعلم محط أنظار طلابه، ولذلك نجد صورًا لمعلمين فقدوا اتزانهم لا تزال عالقة في أذهان التلاميذ بعد مضي عقود طويلة، فانظر إلى صورة ذلك المعلم الذي حدثنا عنه الكاتب أحمد السباعي فقال: «**انتدبوا لنا الشيخ (إسماعيل) ليكون أستاذنا في تحفيظ القرآن ودراسة بعض مبادئ العلوم التي قرروا أن ندرسها إلى جانب حفظ القرآن.**

وعز على الشيخ إسماعيل أن يعترف بمبادئ العلوم التي قررها لنا المنهج وكلّفه بها.. فقد كنا لا نزاول في فصله غير حفظ القرآن إن كان ما زاولناه عنده يُسمى حفظًا.!!... يصيح بنا (مين حافظ يا ولد؟) فيدعي أكثرنا وليس فينا صادق. ثم ينتقل أولنا ليجلس قبالته كما يجلس المصلي على ركبتيه، ولا يشرع في قراءة ما استظهر حتى يكون زميله قد زحف في هدوء حتى يستوي خلف الشيخ، ثم يفتح المصحف على مصراعيه ليتابعه الحافظ عن بعد ويقرأ ما فيه موهمًا شيخنا أنه يقرأه غيبًا. وتتكرر العملية بتكرار التلاميذ الذين ينتقلون لتسميع الشيخ ما حفظوا، ويزحف زملاؤهم إلى ما يلي

ظهر الشيخ ليقابلوهم بالمصحف مفتوحًا تطالعهم فيه الآيات التي يقرؤونها.

ويبدو أن مصلحة التلاميذ المشتركة في الغش كانت تجمعهم على هذا التآلف والتساند، إلا أن الشذوذ الذي لا يخلو منه زمان كان يدفع بعضهم إلى مسارة الشيخ بحقيقة الواقع تولفًا أو نصحًا، إلا أن سيدي الشيخ كانت أخلاقه أكبر من أن تقبل الغيبة في الفصل، فكان يعلن هذه الأسرار كما يعلن أسماء أصحابها»[1].

(1) ايامي، أحمد السباعي، ص.ص (44 ـ 46)، مرجع سابق.

ضعف المعلم في مادته

وضعف المعلم في مادته مكشوف لدى التلاميذ مهما حاول التمويه، إذ تَمَكُّنُ المعلم من مادة تخصصه تعدُّ من أهم مقوماته، وهذه نماذج لضعف المعلمين في موادهم وتلك آثار ذلك الضعف في التلاميذ هذا ما يؤكده الدكتور إحسان عباس في حديثه عن بعض معلميه: **«كان التاريخ المقرر علينا هو تاريخ الدولة الأموية، ولكن معلّم التاريخ أمضى ثلثي السنة وهو يتحدث لنا عن البدوي وكيف أنه هو والنخلة والجمل ثلاثة ممثلين على مسرح الصحراء، ثم بدأ في الثلث الثالث يرسّخ في أفهامنا أن التاريخ رياضيات ويقول مثلاً:**

سعد بن أبي وقاص x رستم = معركة القادسية

وكان أستاذ الفيزياء لا يحسن الجانب الرياضي من هذا العلم، ولهذا فوجئنا بأن امتحان الفيزياء كان في معظمه قائمًا على مسائل رياضية، وهذا شيء لم نكن نملك تداركه، ولكن الله لطف بنا، حين اجتزنا هذا الامتحان العسير.

وكنت قد تلقيت صدمة من معلِّم الجغرافيا حين سألته عن قضية فلكية فأجابني: «هي مشروحة في الكتاب، واللي يفهم يفهم ولا ما يفهم لا عمره فهم»

وجعلت هذه المادة مع محبتي لها ثانوية المقام بين سائر المواد، ولهذا لم أنل علامة النجاح فيها»[1].

(1) غربة الراعي، د. إحسان عباس، ص. ص (122 ـ 123)، مرجع سابق.

المعلم الطائش

وإذا كنا نأبى النزق والطيش في التلاميذ، فيا للمصيبة عندما يكون سمة للمعلم، هكذا يصف الدكتور عبد الرحمن بدوي أحد معلميه فيقول: «**كان الشيخ عبد الرحيم محمود؛ ولم أتتلمذ عليه، ولكنه كان هدف السخرية والتشغيب من الطلاب بحيث كان معروفًا لكل الطلبة. وكان حين يمشي في الطرقات بين الفصول يُنبذ بأحط العبارات، وكان هو يرد عليها بأقبح منها دون أدنى تحرّج. كان يرى في نفسه أنه من أعلم - إن لم يكن هو أعلم - الناس باللغة العربية. ولهذا كان حريصًا على تصيد الأخطاء اللغوية والنحوية الشائعة بين الشعراء والكتاب، ويزعم أنه وجَّه النقد لأصحابها مباشرة، فكان يقول مثلاً: «بائس تجمع على بائسين، ومن الخطأ جمعها على (بؤساء)[1] وقد نبهت حافظ**

(1) البؤساء أو البائسون: رواية للكاتب الفرنسي فيكتور هوجو (1802م - 1985م) تعد من أشهر روايات القرن التاسع عشر، فهي تصف وتنتقد الظلم الاجتماعي في فرنسا بين سقوط نابليون في 1815م والثورة الفاشلة ضد الملك لويس فيليب في 1832م. ترجمها إلى العربية الشاعر المصري حافظ إبراهيم.

إبراهيم[1]: (الشاعر) على هذا الخطأ وطالبته بضرورة تصحيحه في الطبعة القادمة».. وثمَّ شيخ ثالث اسمه منصور بشر. وكان يجمع بين الطيش والنزق وبين الفتوَّة والجهل. كان ضخم الصوت والبدن، يشرح الدرس وكأنه ينادي على بضاعة في السوق»[2].

(1) ـ حافظ إبراهيم: (1871م ـ 1932م) شاعر مصر القومي، ومدون أحداثها.

(2) **سيرة حياتي**، عبد الرحمن بدوي، ج1، ص.ص (41 ـ 42)، مرجع سابق.

غلظة المعلم

وغلظة المعلم صفة مرادفة للنزق، في نظر تلاميذه، فهذا طه حسين يتحدَّث عن أحد معلميه فيقول: «وكان الشيخ.. غليظ الطبع، يقرأ في عنف، ويسأل الطلاب ويرد عليهم في عنف، وكان سريع الغضب، لا يكاد يُسأل حتى يشتم، فإن ألح عليه السائل لم يُعفْه من لكمة إن كان قريبًا منه، ومن رمية بحذائه إن كان مجلسه منه بعيدًا. وكان حذاء الشيخ غليظًا كصوته جافيًا كثيابه. كان حذاء الشيخ غليظًا جافيًا، وكانت نعله قد مُلئت بالمسامير، وكان ذلك أمتن للحذاء وأمنع له من البلى، ففكِّر في الطالب الذي كانت تصيبه مسامير هذا الحذاء في وجهه أو فيما يبدو من جسمه. ومن أجل هذا أشفق الطلاب من سؤال الشيخ وخلُّوا بينه وبين القراءة والتفسير والتقرير والغناء»[1].

(1) الأيام، طه حسين، ص 237، ط1، 1992م، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة..

مجلة الرسالة وكتابها أكبر المعلمين

وتوجيه الطلاب والأخذ بأيديهم إلى قراءة النافع من مهام الأستاذ الناجح، ولننظر إلى أثر ذلك في الدكتور إحسان عباس، الذي يقول: «**كنا من حيث المستوى المدرسي في الصف الثانوي الأول، وكان أستاذ اللغة العربية قد نصحنا أن نشترك في مجلة الرسالة المصرية، وكان الاشتراك السنوي يكلِّف جنيهًا واحدًا، فاشترك كل واحد من طلاب الصف في هذه المجلة، وكانت تصلنا بالبريد، وعليها اسم كل مشترك وعنوانه، والحق أن مجلة الرسالة أصبحت هي «المعلِّم الأكبر» لنا، فيها نقرأ ما يكتبه طه حسين وعلي الطنطاوي ومصطفى صادق الرافعي[1]، وزكي مبارك[2] وأحمد حسن الزيات[3]، وغيرهم من كبار الكتاب ذوي الأساليب المتميزة**»[4].

---

(1) مصطفى صادق الرافعي: (1881هـ ـ 1937م) عالم بالأدب شاعر، من كبار الكتاب المعاصرين.

(2) زكي مبارك: (1891م ـ 1952م) أديب من كبار الكتاب المعاصرين.

(3) أحمد حسن الزيات: (1885م ـ 1968م) صاحب مجلة الرسالة، أديب من كبار الكتاب، من أنصع كتاب العربية ديباجة وأسلوبًا.

(4) **غربة الراعي**، إحسان عباس، ص.ص (92 ـ 93) مرجع سابق.

التدريس فن

ويتحدَّث الدكتور إحسان عباس عن أستاذ التربية وعلم النفس في الكلية العربية بالقدس فيقول: «**كان أحمد سامح[1] أستاذنا في التربية وعلم النفس التربوي قد تخرج في كلية الصيدلة في الجامعة الأميركية ببيروت، ولكنه استطاع بجهده الخاص أن يترجم كتبًا في التربية وعلم النفس، وأن يؤلف في أصول التدريس، وكانت هذه الكتب هي الموضوعة بين أيدينا غير أن شخصية الأستاذ في تأثيرها كانت أقوى من الكتب، وكان أستاذًا مرنًا لا يتجمد عند حرفية التعليمات التربوية.**

أذكر أنه طلب مني تدريس «تاريخ الفينيقيين» للصف الثالث الابتدائي وحضّرت ورقة المنهاج للقيام بهذا الدرس، وعندما واجهت الطلبة لم يستطع مستوى الطلاب أن ينسجم كثيرًا مع المنهاج، فوضعت المنهاج جانبًا وكان يقوم على إلقاء السؤال والتدرج بالدرس بناء على الأجوبة، وحوَّلت الدرس إلى حكاية مشوقة تتخللها حقائق تاريخية. وكان يحضر الدرس جميع

(1) أحمد سامح: (1885م ـ 1951م) فلسطيني من رجال التربية والتعليم، وله مؤلفات في التربية.

زملائي والأستاذ أحمد سامح، وعند انتهاء الدرس أذن الأستاذ لزملائي بالتعليق والنقد، فأجمع أولئك الزملاء على أنه درس «فاشل» لأني تجاوزت فيه تعاليم الأسلوب التربوي الصحيح، فما كان من الأستاذ إلا أن قال: أنا أخالفكم الرأي وأعتقد أنه درسٌ ناجح. إن هذا المدرس موهوب في تحويل الدرس للصغار إلى قصة، ولعلكم لو دققتم النظر لوجدتم أن الطلاب كانوا مشدودين إلى الدرس؛ أفادني هذا الدفاع عن درسي لا لأنه منحني ثقة وحسب، بل لأنه علمني أن لا أقف جامدًا عند القواعد التي ينص عليها أهل التربية، بل أن أُعمل فكري في الموقف وأختار ما يناسبه»[1].

(1) غربة الراعي، د. إحسان عباس، ص. ص (135 ـ 136)، مرجع سابق.

أحمد سامح مرة أخرى

وعن هذا الأستاذ نفسه يقول جبرا إبراهيم جبرا:

«وكانت هناك الكلية العربية بعميدها الأستاذ الكبير أحمد سامح الخالدي، الجهوري الصوت القوي الحضور الذي جعل من نظرياته في التربية طريقة في الحياة فلا يرضى من تلاميذه إلا بالمزيد من المعرفة والنبوغ كمبدأ وطني لا هوادة فيه ولا سيما في موقع الكلية الجديد على جبل المكبر المفتوح على الكون ورياحه الأربع حيث كنا نطالع وندرس بشغف وإلحاح طوال النهار ثم طوال الليل حتى المرض.... وهو الذي اختارني أخيرًا لكي أرسل في بعثه للدراسة في الخارج»[1].

(1) ـ **البئر الأولى**، جبرا إبراهيم جبرا، ص 213، مرجع سابق.

التشجيع للكبار أيضًا

ويشبه هذا الموقف موقف الدكتور: محمد قدري لطفي، الذي درس الشيخ القرضاوي في التربية العملية فقال عنه: «**وأذكر ممن درسونا التربية العملية: الأستاذ الدكتور محمد قدري لطفي، وكان من أعلام التربية العملية في تدريس اللغة العربية، وله مؤلفات في ذلك، وفي أواخر الفصل الدراسي يأخذ طلبته إلى المدارس الحكومية، ليلقي كل منهم درسًا نموذجيًا، يختاره ويحضره، ثم يلقيه أمام الأستاذ وأمام زملائه، وفي اليوم الواحد نحضر عدة دروس، ثم نجتمع مع الأستاذ في جلسة خاصة للنقد والتقويم، وتُعطى الفرصة أولاً للطلاب ليقوّموا عمل زميلهم ويبدوا ملاحظاتهم عليه، ثم يبدأ الأستاذ.**

وأذكر ذلك اليوم الذي كان فيه درسي، وكان في إحدى مدارس العباسية بالقاهرة، وكنا أربعة من طلاب التخصص، وبعد أن ألقينا دروسنا اجتمعنا كالعادة، ونقد بعضنا بعضًا، ثم استمعنا إلى نقد الأستاذ الدكتور قدري، وكان نقده في الصميم: هذا كان عابس الوجه، وهذا كان قلق الشخصية، وهذا كان درسه تلقينيًا لم يُشرك الطلبة معه، ولم يستثرهم بالأسئلة المناسبة، إلى

أن جاء عندي فقال: أما القرضاوي فكان درسه مثالاً يُحتذى: في شخصيته، وفي وقفته، وفي ابتسامة وجهه، وفي إقباله على التلاميذ، وفي إشراكهم معه في كل الخطوات، وفي تلخيص درسه في النهاية، ولا يسعني إلا أن أشكر له، وأن أتمنى له دوام التوفيق في مستقبل حياته، وقد أعطاني الدرجة خمسين من خمسين»[1].

(1) **ابن القرية والكتاب**، د. يوسف القرضاوي، ج2، ص. ص (15 ـ 16)، مرجع سابق.

مع مدرِّس آخر لعلم النفس

ويحدثنا الدكتور محمد رجب البيومي عن أستاذ علم النفس الدكتور أحمد عزَّت راجح بإعجاب ورضا؛ فيقول: «**ولا أنكر أن بعض الأساتذة كالدكتور أحمد عزت راجح قد ارتقى بمادة علم النفس إلى مستوى رفيع في شرحه وتوضيحه وكان أسلوبه الأدبي يتيح له الإفاضة المشبعة في تحليل المادة بحيث كنا نتمنى أن ننقل كل كلمة يقولها وقد فهمنا على يده موضوعات كثيرة من مسائل علم النفس كالعقد النفسية واللاشعور والكبت والإسقاط، والغرائز المكتسبة والتبرير والحيل اللاشعورية وغيرها هذا من الناحية العلمية أما الناحية الخلقية فقد بلغ منها أوفى مراتب الكمال من سعة الصدر، والصبر على النقاش ـ وهو وحده الذي يرحب بذلك دون سائر الزملاء ـ وأذكر أن زميلاً فاضلاً لنا كان قد قرأ كتاب إحياء العلوم للغزالي بإمعان، ودرس معضلات النفس وبواعثها كما قرر حجة الإسلام من قبل، فكان يفاجئ الدكتور راجح بما يشبه ما يقوله، أو بما يخالفه مستندًا إلى الغزالي، وقد أعجب الدكتور راجح بالطالب ورجاه أن يحضر كل ما يقع في يده من حديث الإمام عن شجون النفس وانفعالاتها وبواعثها! ثم يأتي**

بإضافات جديده تحمل آراء الغزالي ويتبعها بالتاكيد أو النقد كما يشاء! هذا هو الأستاذ الوحيد الذي حاز تقدير طلبته من أساتذة المعهد»[1].

(1) ظلال من حياتي، محمد رجب البيومي، ص50، مرجع سابق.

التشجيع

ويذكر الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين[1] في كتابه (سيرة الفتى مفتاح) تشجيع معلميه عندما تحدَّث عن مدرسته ومدرسيه في المرحلة الابتدائية فقال: «**ولقيت فيها [أي المدرسة] التشجيع من أساتذتي وخاصة شيخي محمد الحافظ وكان وثيق الصلة بإدارة المدرسة، وكانت تعتمد عليه كثيرًا، لعلمه ولحيويته وعمله المتواصل فيها وإخلاصه، الذي لا حدود له**»[2].

(1) عبد الفتاح أبو مدين: (1926م -........) أديب وناقد سعودي.

(2) سيرة الفتى مفتاح، عبد الفتاح أبو مدين، ص 142، ط1، 1996م.

التشجيع أيضًا

ولكلمة التشجيع فعل السحر، وهذا الأثر الذي تركته كلمة واحدة قالها المعلم لألفريد فرج[1]، التي تضمنتها إحدى مقالاته فقال: **«حين كتبتُ بعض الأبيات ضمن موضوع الإنشاء سألني الأستاذ أحمد الشرقاوي مدرس اللغة العربية: «من أين جئت بهذه الأبيات؟» فقلت له: «أنا نظمتها» فسكتَ لحظة ثم قال: «بارك الله فيك يا ولدي» وتطلَّعَ إلى زملائي في الفصل وقال: «زميلكم موهوب» فكانت هذه العبارة القصيرة أكبر جائزة نلتها في صباي»**[2].

(1) ألفريد فرج: (1929م ـ 2008م) كاتب ومؤلف مسرحي مصري.

(2) **الفريد فرج في دنيا الكتابة**، تقديم: نبيل فرج، ص 27، ط1، 2009م، دار العين للنشر، القاهرة.

ثلاثة معلمين

يذكر الطنطاوي أيادي معلميه عليه، ويخص بالفضل ثلاثة من معلميه في مكتب عنبر (المدرسة الثانوية في دمشق) آنذاك هم: عبد الرحمن سلام والمبارك وسليم الجندي، فيقول: «**الثلاثة الذين منَّ الله بهم عليَّ في مكتب عنبر، فقبستُ منهم، وأخذتُ عنهم: سلام، والمبارك، والجندي..**

أما الشيخ عبد الرحمن سلام، فهو الذي جرأني على امتطاء صهوات المنابر، ومقارعة الفرسان في ميادين البيان والذي كان عجبًا من العجب، إذا احتاج أن يتكلم في موضوع لم يكن عليه إلا أن يفتح فمه، ويحرك لسانه، فإذا المعاني في ذهنه، والألفاظ على شفته، والسحر من حوله، والأنظار متعلقة به، والأسماع ملقاة إليه، والقلوب مربوطة بحركات يديه، وكان يرتجل الشعر كما يرتجل الخطب، شعرًا دون أشعار المطبوعين المجودين وفوق شعر الفقهاء، وكان يرمي الكتاب (كتاب النحو) لا يحفل به، ويتكلم من أول الساعة إلى آخرها في اللغة والأدب وفي كل شيء، كأنه كان يريد أن يربينا على السليقة العربية بالمحاكاة والمران، وينفخ فينا من سحره ليجعلنا أدباء قبل الأوان.

وأما المبارك فما رأيت وما أظنٌّ أني سأرى مدرسًا له مثل أسلوبه في الشرح والبيان، وفي امتلاك انتباه الطلاب، وفي نقش الحقائق في صفحات نفوسهم بهذه الضوابط المحكمة العجيبة التي تلخص في جملة واحدة فصلًا من فصول العلم»[1].

(1) ذكريات علي الطنطاوي، ج1 ص. ص (154 ـ 156)، مرجع سابق.

من خواطر القط عن معلميه

وفي مقال للدكتور عبد القادر القط[1] في مجلة العربي عام 1998م يسوق خواطر له مع معلميه فيقول: «لم يكن المدرس في المدرسة الثانوية بأقل تأثرًا من تلاميذه، بطبيعة العصر وما جلب من تحولات في رؤية الحياة والتعبير عنها بالشعر والقصص والمقال، فكان يُقدم النصوص (المقررة) بحرية وتوسع وذوق شخصي، ويوجه طلابه في موضوعات (الإنشاء) إلى التعبير الحر عن الذات. وأذكر - في هذا المجال - أن مدرس اللغة العربية طلب إلينا ذات يوم أن نكتب في موضوع عنوانه (خواطر في ليلة أرقت فيها) فارقت له ذات ليلة وكتبت مقالاً طويلاً، لا بد أن أغلبه كان مقتبسًا - دون أن أفطن - مما ترسب في خاطري من كتابات المنفلوطي.

وأعجب الأستاذ بالمقال إعجابًا كبيرًا، وكتب تعليقًا في نهايته، مُجاريًا إياي، أو على الأصح مجاريًا المنفلوطي المصدر الأول لخواطر أرقي. وكنت قبل أن

(1) عبد القادر القط: (1916م - 2002م)، أستاذ جامعي وناقد مصري بارز.

أنتهي من الدراسة الثانوية قد عقدت العزم على الالتحاق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، يدفعني حبي للغة والأدب، وتشدني أسماء كبيرة لامعة تجاوز وجودها الجامعة إلى المجتمع المصري والعربي في الأدب والفكر والسياسة...

وكانت محاضرات طه حسين تتجاوز تقديم (الحقائق) إلى إثارة (التساؤل) ودراسة النحو للأستاذ المجدد إبراهيم مصطفى لا تقنع بتقديم (القواعد) بل تحاول أن تصل إلى مناهج جديدة وتربط النحو بالمنطق، في كتابه الرائد (إحياء النحو).

وكان المؤرخ الكبير عبد الحميد العبادي (يفسر) أحداث التاريخ ويفلسفها ولا يسوقها لطلابه مجرد أحداث ووقائع.

أما أمين الخولي، فقد تميز من بين الأساتذة جميعًا بقدرته على إثارة الجدل حول الرأي الواحد، وبقسوته (الظاهرية) في مناقشة ما كنا نقرأ في المحاضرة من بحوث، وكان بادي السخرية أحيانًا، لكنها سخرية يقصد من ورائها أن يصرف الباحث عن الالتفات إلى رأي واحد دون النظر في وجوه أخرى ممكنة للموضوع أو القضية»[1].

---

(1) مرفا الذاكرة، سلسلة كتاب العربي، (54)، 2003م، ص.ص (144 ـ 146).

طه حسين
التوهج والأستاذية

ويعتز عبد القادر القط بتتلمذه على يد أساتذة كبار على رأسهم الدكتور طه حسين فيقول:

«بعد السنة الإعدادية بالجامعة دخلت قسم اللغة العربية وارتبطنا بأساتذتنا الكبار ومنهم الدكتور طه حسين.

كنا مفتونين بطه حسين في ذلك الوقت، بأسلوبه النثري الجديد الذي تجاوز به أسلوب المنفلوطي. قلت الفواصل والسجع والألفاظ الرنانة. في أسلوب طه حسين نوع من الانسياب والموسيقية المنسابة، والمعنى زاد عمقًا، والرؤية ازدادت حداثة وتأثرًا بالفكر الأروبي.

طه حسين كان يحمل فكرًا جديدًا ورؤية جديدة للتراث العربي.

وكان طه حسين يؤكد فتنتنا بهذا الأسلوب بإلقائه هو نفسه في المحاضرات التي كان يلقيها علينا بكلية الآداب، وفي المحاضرات العامة [......] يتمثل حضور طه حسين بطريقة كلامه، وبما يعطيه، وتنغيم إلقائه،

ثم بما له من وجود شخصي في نفس المتلقي. والطالب يدرك أن طه حسين هو الذي يدرسه.

فهو مسحور بأستاذيته الكبرى، مسحور بالكلام الذي يسمعه وبالصلة التي أتيحت له أن يتتلمذ على هذا الأستاذ»[1].

(1) عبد القادر القط.. ذكريات عمر، عبد البديع عبد الله، ص25، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

صفات المدرس الناجح

وبعد تجربة طويلة للدكتور غازي القصيبي يلخص لنا رؤيته للمدرس الناجح في هذه السطور: «**تجربتي الطويلة مع المدرسين علمتني أن للمدرس الناجح أربع صفات لا تفارقه ولا يفارقها. الصفة الأولى هي عشق المادة التي يدرسها، والصفة الثانية هي محبة الطلاب الذين يدرسهم، والصفة الثالثة هي القدرة على التواصل، والصفة الرابعة هي التسامح الفكري. ولا بد من تعليق موجز على كل صفة. ولا يكفي أن يتخصص المدرس في مادة ما - فالتخصص مهارة لا تغني عن الحب. أعرف كما تعرفون، أن التخصص قد تحكمه اعتبارات لا علاقة لها بحب أو كره. أتصور أن المدرس الذي لا يعشق مادته والعشق أقوى من الحب فيما يقال، لن يتمكن من أن يكون مدرسًا ناجحًا. وحب المادة يجب أن يمتد إلى حب الطلاب، والحب يحمل ضمن ما يحمل معاني الاحترام والتشجيع والشفقة. أعرف كما تعرفون، أن التجربة تشير إلى أن عددًا لا يستهان به من المدرسين لا يحملون لطلابهم مشاعر يمكن للمراقب الموضوعي أن يصفها بالمودة، فضلاً عن الحب. والقدرة على التواصل خصيصة أساسية من خصائص المدرس الناجح. أعرف كما تعرفون أن**

أكثر الناس علمًا ليس، بالضرورة أقدرهم على نقل هذا العلم للآخرين. أما التسامح الفكري المتوقع من المدرس الناجح فيسير في مسارين:

أولهما: قدرة المدرس على أن يدرك أنه لا توجد طريقة واحدة صحيحة للتدريس.

وثانيهما: أن يتقبل أن يحمل طلابه أفكارًا قد تختلف كثيرًا أو قليلاً عن آرائه الشخصية.

إن مسئولية المدرس كمهمة الأب، لا تعني أن يحاول صياغة الطالب أو الابن على مثاله، أن يجعله، بعبارة أخرى، نسخة فكرية منه ولكنها على العكس تعني أن يعين الطالب أو الابن على أن ينمو بشخصية مستقلة، أول مظاهر استقلالها الاستغناء عن ظل المدرس، أو ظل الأب، أعرف، كما تعرفون، أننا لا نجد بين الآباء، أو بين المدرسين هذه النظرة في كل الأحوال والظروف. حسنًا! أوشك أن أقول: إن المدرس الناجح، كالشاعر الناجح مدرس موهوب وإن المدرس الموهوب كالشاعر الموهوب، يولد بموهبته أوشك ولكنني لا أقول. لو جرأت على إصدار حكم خطير كهذا لأقحمت نفسي ظلمًا لها في ميدان سبق أن اعترفت أني لم أدرسه على أي نحو. على أنني أتمنى وباب الأمنيات مفتوح لكل أحد، أن يتمكن خبراء التربية من تطوير آلية تستطيع تبين غيابها. عندما توجد الخصائص يمكن أن تُطور وتُنمي في مدرسي المستقبل من عقاب لا مبرر له بتوجيه المرشح

إلى مهنة غير مهنة التدريس النبيلة الجليلة. أعتقد أنه لو أمكن الوصول إلى آلية كهذه فسيكون هذا الإنجاز أعظم ثورة شهدها التعليم منذ اكتشاف الأبجديات والأرقام..»[1].

(1) باي باي لندن، غازي القصيبي، ص. ص (63 ـ 65)، مرجع سابق.

لماذا يتغير المعلم عندما يصبح مديرًا؟

ويستثمر القصيبي خبرته الطويلة على مقاعد الدراسة ليفسِّر لنا هذا التغير الذي يلمسه الطلاب والمعلمون على المعلم الذي يتحول إلى مدير، وكذا يلمسه الموظفون على زميلهم الذي يرتقي ليصبح مديرًا بعد أن خبروه بينهم أخًا وخلًا ورفيقًا؛ فلنصغ إلى هذا التفسير القصيبي المنطقي: **«تعاقب على المدرسة خلال دراستي مديران كان أحدهما مشهورًا بطيبته ولكنه ما أن أصبح مديرًا حتى سلك مسلكًا يفوق في الشدة مسلك سلفه. وهكذا يكتشف الطفل في سن مبكرة، معنى «تغيير القبعة». بتغير الموقع يتغير السلوك، هذه الظاهرة يعرفها الناس منذ الأزل ويعزوها معظم الناس إلى الغرور الذي يولد فجأة مع الموقع الجديد. قد تكون نظرية الغرور صحيحة في بعض الحالات، إلا أن الأصح هو أن الموقع الجديد يفرض على شاغله سلوكًا جديدًا بحتميته لا دخل للغرور أو التواضع فيها كما فرض موقع المدير على المدرس الرقيق أن يتصرف بغلظة وقسوة»**[1].

(1) **حياة في الإدارة**، غازي القصيبي، ص. ص (14 ـ 15)، مرجع سابق.

الضرب ضرورة

ويخالف القصيبي خبراء التربية في مسألة الضرب، فيراها ضرورة في مواطن معينة، وتحت ظروف معينة، ووفق ضوابط معينه، ولكنه لم ينس الاعتذار للمختصين والتربويين فيقول: **«بعد هذه السنين كلها، ومع تقديري للخبراء التربويين ونظرياتهم، أرى أن عقوبة الضرب يجب أن تبقى في المدارس الابتدائية دون الإعدادية والثانوية ويجب أن تبقى في يد المدير وحده. أعرف كما عرف كل طالب، أن هناك نماذج من الطلبة لا يفلح في تقويم مسلكه في هذه السن سوى العصا، أو التلويح بها»**[1].

(1) السابق، ص15.

النتائج الوخيمة للتهاون الإداري

ولنبقَ مع القصيبي أيضًا وهو يعرض خلاصة تجاربه على مقاعد الدراسة، ليخلص منها إلى ما يشبه النظريات التربوية والإدارية، وهذه واحدة منها يعرض فيها بعض العواقب الكارثية، للتهاون الإداري فيقول: «**في السنة الخامسة الابتدائية اصطدمت لأول مرة بالنتائج الوخيمة للتهاون الإداري وإن كنت وقتها، لم أسمع بهذا التعبير. أوكلت الإدارة تدريس ثلاث مواد رئيسية إلى شاب قليل الخبرة، عديمها، هي الكلمة الأدق، خال تمامًا من روح المسئولية. كان سرورنا عظيمًا بهذا المدرس الذي لم يشرح شيئًا، ولم يطالبنا بواجب وكان يقضي الحصص كلها في الحديث عن السيارات، أنواعها وخصائصها وسرعتها وأثمانها. لا أبالغ إذا قلت أننا لم نكد نلمس المناهج لمسًا فضلاً عن دراستها. وقعت الواقعة في نهاية العام.**

حيث رسب أكثر من نصف الطلاب في مادة أو أكثر من مواد المدرس المفتون بالسيارات. تنبهت إدارة المدرسة، بعد فوات الأوان إلى الخطأ وذهب المدرس غير ماسوف عليه. إلا أن المذبحة كانت قد تمت واضطر الراسبون إلى إعادة السنة. وكنت بدوري راسبًا في مادة من مواد المدرس، هي الحساب وكان النظام يقتضي ان

أبقى مع الراسبين، إلا أنني وجدت نفسي أنتقل إلى السنة النهائية مع الناجحين.

سمعت أيامها لأول مرة في حياتي عن كلمة «الواسطة». ردد بعض الزملاء أنني نجحت لأن أبي استخدم نفوذه مع إدارة المدرسة، أي إنني نجحت بالواسطة. حقيقة الأمر كما عرفت من المدرسين أنفسهم فيما بعد أن أبي لم يعرف أنني رسبت. حتى أنا لم أعرف بواقع الرسوب إلا بعد انتقالي إلى السنة الأعلى. لم تكن هناك واسطة من أحد. رأى المدير وشاركه كل المدرسين الرأي، أنه لا يجوز أن يرسب طالب متفوق منذ سنته الأولى لأن بعض الدرجات تنقصه في مادة واحدة. فَرَّقَتْ تلك السنة المشئومة بيني وبين عدد كبير من الزملاء الذين تخلفوا دون ذنب منهم (لا يزال بعضهم متمسكين بنظرية الواسطة إلى الآن!) وخلفت في نفسي أثرًا لا يمحى عن جور النظام الذي يضطر الطالب إلى إعادة سنة بكاملها بسبب مادة واحدة. عندما وصلت إلى موقع كان بوسعي فيه أن أعمل شيئًا لتعديل نظام مماثل لم أتردد. لا بد أن أقول قبل أن أترك هذا الموضوع أن الشجاعة كانت تتطلب من إدارة المدرسة أن تكفر عن ذنبها بقرار شجاع يسمح بنجاح جميع الضحايا. إلا أن الشجاعة كما سأكتشف المرة تلو المرة ليست من السجايا المأثورة عن البيروقراطية»[1].

(1) حياة في الإدارة، غازي القصيبي، ص.ص (15 ـ 16)، مرجع سابق.

الفساد الإداري

وعن تجربته مع الفساد الإداري في المدارس يقول القصيبي: «في المدرسة الثانوية تفتحت عيناي على ضروب من الفساد الإداري ما كان لطالب الابتدائية أن يتبينها. لاحظت أن بعض المدرسين يعاملون الطالب طبقًا لوضعه الاجتماعي لا لأدائه المدرسي. ولاحظت كيف تصبح الدروس الخاصة مورد دخل إضافي يحرص عليها المدرس أكثر من حرصه على الدروس الأصلية وأذكر في هذا المجال أن مدرس اللغة العربية في سنة من سنوات الدراسة وكان شخصية غريبة الأطوار اقترح عليَّ أن أتلقى دروسًا خاصة منه. أبديت له استغرابي من الاقتراح، وكنت قد حصلت في امتحان الفترة على تسع وأربعين درجة من أصل خمسين، وأبدى هو استغرابه من الذين «يتكبرون على العلم». طلب مني المدرس نفسه في وقت لاحق أن أعد بحثًا عن الشاعر زهير بن أبي سلمى. أعددت البحث المطلوب، وكم كانت دهشتي بالغة وأنا أرى المدرس يطبعه ويوزعه على الطلاب ويعتبره جزءًا من المنهج، دون أى إشارة إلى اسم «المؤلف» أعتقد أنني كنت أول طالب في تاريخ المدرسة وربما آخر طالب يقوم بإعداد جزء من المنهج. وكانت غرائب هذا المدرس لا تنتهي. ذات يوم كلفنا بموضوع

عن «النظام» في حصة الإنشاء. كان معنا في الفصل الصديق الشاعر المعروف عبد الرحمن رفيع[1]، وبدأ الموضوع على هذا النحو «كم كنت أتمنى لو كانت المواضيع التي يقترحها أستاذنا الفاضل تثير الخيال وتفتح المجال أمام القلم» لم يكن في هذه المقدمة ما يغضب، إلا أن المدرس اعتبرها إهانة شخصية وأثار ضجة كبرى. واضطر المدير إلى حرمان عبدالرحمن من الدراسة يومًا واحدًا»[2].

(1) عبد الرحمن رفيع: (1938م ـ ....) شاعر بحريني.

(2) حياة في الإدارة، غازي القصيبي، ص. ص (19 ـ 20)، مرجع سابق.

شخصية المعلم

ثم يحدثنا عن قدرة التلاميذ على اقتحام الأسوار التي يضربها المعلم حول نفسه، واكتشاف شخصيته، والتعامل معه وفق شخصيته القوية أو الضعيفة؛ فيقول: «**وإذا كان الطابور الصباحي يكشف للطفل في أسبوعه الأول عدة نماذج إدارية فإن الفصول سرعان ما تكمل الصورة. يرى الطفل الشخصية الإدارية المتشددة التي ترفض دخول الطفل الفصل بعد ابتداء الحصة بدقيقة أو دقيقتين وبقاؤه خارج الفصل له نتيجة محتومة واحدة: خيزرانة المدير. ويرى الشخصية الإدارية المتساهلة التي لا ترى أن تأخر بضع دقائق يحول بين الطالب والدخول. يرى الطفل المدرس المبتسم والمدرس العابس، المدرس العصبي والمدرس الهادئ، المدرس الذي يؤمن بالضرب والمدرس الذي يؤمن بالكلمة الطيبة. على أن أهم ما يتعلمه الطالب وهو درس يبقى معه إلى نهاية دراسته الجامعية وما بعد الجامعية، هو التفرقة بين المدرس قوي الشخصية والمدرس ضعيف الشخصية. المدرس الذي يتمتع بالشخصية القوية يسيطر على الفصل بسهولة ودون وعيد أو وعود. أما المدرس الذي يفتقر إلى الشخصية القوية فإنه يعجز عن السيطرة على**

الفصل حتى حين يعاقب كل طالب في الفصل. ما هو السر وراء قوة الشخصية؟ هذا سؤال من الأسئلة التي حيرت البرية، ولا تزال تحيرها. ما يهمنا هنا، هو أن الشخصية القوية تشع إشعاعًا لا يخطئه أحد، في الفصل وخارج الفصل في المدرسة وفي كل مكان في مهنة التدريس وفي كل مهنة»[1].

(1) حياة في الإدارة، غازي القصيبي، ص 14، مرجع سابق.

المعلم ضعيف الشخصية

وهنا مصداقٌ لضعف لكلام القصيبي، فهذه قصة تدل على أن ضعفَ المعلم حافز للطلاب على التمرد ومخالفة الأنظمة، بل على الإساءة للمعلم نفسه، وهذا ما حكاه وأكده ميخائيل نعيمة، عندما روى لنا قصة الطلاب مع معلم اللغة اللاتينية العجوز فقال: **«لقد طرد الطلاب من الصف أستاذ اللغة اللاتينية. وهو رجلٌ طاعنٌ في السن، وقد مضى عليه أستاذًا في السمنار29 سنة!.. رفاقي يريدون من المعلم أن يعاملهم معاملة الند للند. فلا يؤنب أحدًا، ولا يعطي أيًّا منهم علامة رسوب، ولا ينزل القصاص بأحد، ويغض الطرف عن جميع شيطناتهم. وعندهم لكل معلمٍ كنية خاصة تتناقلها أجيال الطلاب عامًا بعد عام. ومعلم اللاتينية يكنى «الدجاجة». ففي مشيته ما يشبه مشية الدجاجة. أما تقاسيم وجهه فتدل على أنَّه، في شبابه، كان رجلاً وسيمًا...**

دخل الصف اليوم وبدلاً من أن يدعو تلميذًا بعينه سأل إذا كان هناك من راغب في قراءة المثالة المفروضة. فلم يلقَ جوابًا من أحد. وأعاد السؤال ثانيةً وثالثة. وإذا بالصف يهدر: «ليس بيننا من راغبين». وعلا الهدير، فامتعض المسكين أشدَّ الامتعاض، وراح يصيح بأعلى

صوته مهدِّدًا بالخروج من الصف. فكان جواب التلاميذ: «تفضل اخرج!» وإذ لم يخرج من تلقائه أخرجوه بالقوة وهم يصرخون في إثره: «دجاجة! دجاجة!» عندها انفجر العجوز بالشتائم: «خنازير! أوباش! أنذال! مجانين!» وكان في انفجاره ما يثير الضحك والبكاء في آن... إن ما يجرح في تصرف رفاقي اليوم هو استئسادهم مع الضعفاء من معلميهم وجبنهم تجاه الأقوياء...»[1].

(1) سبعون... حكاية عمر، ميخائيل نعيمة، ج1، ص339، مرجع سابق.

أنبل مهنة

وبخبرته وثاقب نظره يلخص لنا الدكتور غازي القصيبي خلاصة تجاربه التربوية مع المعلمين ومهنة التعليم فيقول: «**يستطيع الطالب قبل إنهاء دراسته الثانوية أن يلحظ بين المدرسين كل صفات البيروقراطيين التقليديين من النزاهة المطلقة إلى الانحراف الكامل وما بين هذا النقيض وذاك من طبقات ودرجات. أعتقد أن الوهم الشائع أن بعض المهن تجتذب أناسًا أشرف من بقية البشر لا ينهض على أساس من الواقع. لا يوجد أنبل من مهنة التدريس، ولا يوجد أفسد من بعض المدرسين**»[1].

---

(1) **حياة في الإدارة**، غازي القصيبي، ص20، مرجع سابق.

الطنطاوي يودع تلاميذه

ويحسن هنا أن أودع القراء الكرام بذكر كلمة الطنطاوي التي ألقاها مودعًا بها تلاميذه في درسه الأخير، إذ حدثهم بحديث لم يعهدوه وقد نقل من مدرسته في بغداد سنة 1936م فقال: **«أولادي! انتظروا! لا تخرجوا كتبكم، ولا تفتحوا دفاتركم، فما جئت لألقي عليكم درسًا، وإنما جئت لأودعكم لأني نقلت من مدرستكم. إن الوداع صعب يا أولادي لأنه أول الفراق،وما آلام الدنيا كلها إلا ألوان من الفراق: فالموت فراق الحياة، والثكل فراق الولد، والغربة فراق الوطن، والفقر فراق المال، والمرض فراق الصحة.**

إن الوداع صعب ولو إلى الغد، فكيف إن كان المودع صديقًا عزيزًا، فكيف إن كان ولدًا، فكيف إن كانوا أولادًا؟ أنتم أولادي، أولادي حقيقة لا أقولها مجاملة ولا رياء، ولا أسوقها كأنها كلمة تقال، ولكن تنطق بها كل جارحة فيَّ، وأحسها من أعماق قلبي!

ولمَ لا؟ ألستم تحبونني وأحبكم؟ ألم أفكر فيكم دائمًا وأخف عليكم؟ ألم تروني آلم إذا تألم أحدكم، وأثور إذا تعدى أحد عليكم؟ ألم أفتح لكم قلبي حتى اطمأننتم

إليَّ وأنستم بي، وخرقتم حجاب الخوف الذي كان بيني وبينكم، كما يكون بين معلم وتلاميذه، وغدوتم تدعونني لأشارككم في ألعابكم، وتقصون عليَّ أخباركم وتبثونني أحزانكم، وتنبئونني بأسراركم، وتشكون إليَّ ما يصيبكم من آبائكم وأهليكم؟ فأي صلة بين الآباء والأبناء أوثق من هذه الصلة، وأي سبب أقوى من هذا السبب؟

أنتم أولادي. فهل رأيتم أبًا يودع أولاده الوداع الأخير ثم يملك نفسه أن تسيل من عينيه؟ لقد شغلتم نفسي زمانًا، وأخذتم عليَّ مسالكي في الحياة، فلا أرى غيركم ولا أفكر إلا فيكم، وأقنع بصداقتكم هذه الخالصة المتعبة المرهقة، عن الصداقة الكاذبة، والود المدخول.

فكيف أقدر أن أملك نفسي وأنا أقوم بينكم لألقي عليكم كلماتي الأخيرة، ثم أمضي لطيتي لا أدري أأراكم بعد اليوم أم لا أراكم بعد أبدًا»[1].

وبعد:

فيا قارئي الكريم، ليت شعري لو قرأ الأساتذة ما سطرته ذاكرة التلاميذ، ما حالهم إزاء تلك المواقف التي نسوها وحفظها التلاميذ؟! فيا لهم من مساكين أولئك المعلمين الذين وقعوا ضحية طبائعهم، أو ضحية استهانتهم برسالتهم، وانقلب أمرهم مع تلاميذهم ليمسوا ضحايا

(1) من حديث النفس: علي الطنطاوي، ص. ص (192 ـ 193)، ط4، 1990م، دار المنارة، جدة.

لذاكرة وأقلام ضحاياهم، وهنيئًا لأولئك المعلمين الذين علوا برسالة التعليم وعلث بهم، لتخلد أسماؤهم ومواقفهم في ذاكرة التلاميذ وفي مذكراتهم. ولو أنعمنا النظر لوجدنا أكثر الذين قرأنا طرفًا من أخبارهم قد رحلوا عن دنيانا، وسيلحق بهم الباقون، وسيدرك السابقين جميعًا هذا المتأمل في حكاياتهم، ويبقى الذكر الحسن..

مـات الـمُـداوي والـمُـدَاوَى والـذي

جَـلَـبَ الـدواء وبـاعـه ومـن اشـتـرى!!

ولي ولأولئك جميعًا أسأل الله العظيمَ مغفرتِه وكريمَ إحسانِه وجميلَ عفوه.

عن المدرسة والمدرسين والتلاميذ

إبراهيم مضواح الألمعي
نوفمبر 2012م

معاذ الله أن أعدَّ نفسي ممن وصفتهم بالكبار، في عنوان الكتاب، فما أنا من لِدَاتِهم سِنًّا، ولا أنا من بابَتِهم علمًا، ولا أثرًا، غير أني وجدتُ بين أوراقي ثلاث مقالات، منشورة في أوقاتٍ متفرقة، تمتحُ من المعين نفسه الذي هو موضوع هذا الكتاب، وخشيتُ ألا يتيسرَ لي نشرها في كتاب مستقل في موضوعها، فآثرت أن أُلْحِقَها بهذه الطبعة، والحكم للقارئ الكريم، فإن رأى فيها ما يسوِّغُ وجودَها، فذلك ما كنتُ أبغِي، وإن لم يرَ ذلك فليعتبر الكتاب انتهى عند هذا الحد، وليضرب صفحًا عمَّا بقي من صفحات..

المعلم.. في غربال الذاكرة(*)

المعلِّم يؤدي رسالة عظيمة، ويحمل أمانة تنوء بحامليها، وهل هناك أعظم أمانة من الأفكار والمعلومات، قوت القلوب وزاد العقول، إن المعلم - أيَّ معلِّم - يدرك ذلك جيدًا، سواء ترجمَ هذا الإدراك إلى واقع يحياه ويحيا به، أم حجبته سُجفُ التجاهل والنسيان..

ومع هذا فهو شاكي الحرمان دائمًا، وقديمًا قال المعري:

إن المعلِّم والطبيب كليهما

لا ينصحان إذا هما لم يُكرما

ولست أدري حقيقة الشكوى التي تلازمنا معشر المعلمين، فمنذ أن ردَّ (طوقان) مديحة (شوقي) عليه، تخلى أكثر الشعراء المعلمين عن (شوقيتهم) وتحولوا إلى (طوقانيين) يندبون حظهم، ويباهون بعطاءاتهم فمن قائلٍ:

ظمآن توروده الحياةُ سرابَها

والجيل كلُّ الجيل من وراده

(*) **مجلة المعرفة**، العدد (85)، يوليو 2002، ص.ص(48 - 54).

تلقاه طول الدهر يغرس جوهرًا
ومرارة الحرمان كلُّ حصاده

إلى قائلٍ:

وأحملُ يا سلمى نصابًا مروعًا
تخور القوى منه وينقطع الظهرُ
نصابًا له عمرٌ مديدٌ كأنما
هو الدهر لا يبلى ولا ينقضي العمرُ

إلى قائلٍ:

تجاهلُ يا أبا العلياء ذوَّبنا
أسىً وألهبنا حزنًا وأبكانا

وهكذا ينعى الطوقانيون أنفسهم، ويعدونها جحود التلاميذ:

يا موقد القنديل نبض فؤاده
احذر فؤادك واحذر القنديلا

وكأني بهؤلاء جميعًا يرددون وراء قائدهم (طوقان) قوله:

لو جرَّبَ التعليمَ (شوقي) ساعة
لقضى الحياة شقاوةً وخمولا

وبرغم قِدَم شكوى المعلمين فلم يكن التعليم النظامي معروفًا بالمفهوم العصري في المملكة قبل عام 1344هـ/1925م، إذ في هذا العام أمر الملك عبد العزيز بإنشاء أول مديرية للمعارف، وفي العام الذي يليه أفتُتِحَ المعهد

السعودي بمكة المكرمة ليكون أول مؤسسة حكومية تربوية في المملكة لما فوق المرحلة الابتدائية..

ولم يكن هناك بدٌّ من استقدام المعلمين من البلاد العربية الشقيقة التي سبقت في ميدان التعليم، وعلى أيدي هؤلاء الأشقاء بدأ التعليم ينتشر على وجه الخريطة السعودية.

وقد كان التعاقد مع معلمين من الدول العربية أمرًا مألوفًا ضمن أجندة أعمال مديرية المعارف، ومن بعدها وزارة المعارف التي أُنشئت عام 1373هـ/ 1954م.

وقد كان للأشقاء العرب إسهامهم في انتشار التعليم في المملكة، فقد تعلمتْ على أيديهم أجيال تلو أجيال، حتى اعتاد الطلاب أن تقترن كلمة (أستاذ) بذلك المعلم المصري أو الشامي وربما السوداني، وفي البدايات لم تكن تلك الوجوه مألوفة للصغار، فصارت وجهًا آخر للمدرسة، سرعان ما يألفونها كإلفهم المدرسة، إذ قلما يوجد معلم سعودي وخصوصًا في الأرياف والمناطق البعيدة عن الحواضر، وكلما علت المراحل ندر وجود المعلم السعودي، وإن وجد فإنه يكون غريبًا في عيون تلاميذه..

وقد كان المعلِّم مرجعًا في مادته، وليس من المستساغ أن تمر كلمة (لا أدري) على لسانه، فما جاء من وراء الحدود إلا وهو قادرٌ على التصدي لكل تساؤلات التلاميذ، وقد كانت الأسئلة على صعوبة مخاضها لا تندُّ كثيرًا عن أجواء المقرر، فلم يكن أمام التلاميذ نوافذ

للمعرفة سوى المدرسة بمعلميها ومقرراتها التي هي مصدر تنوير للقرية أو الحي، وربما للمدينة بأسرها، يُشار للمنتمين إليها بالبنان، طلابًا، ومعلمين، وربما يكون معلم المدرسة مفتيًا للقرية، يستفتيه الناس في مسائل العبادة والمعاملة، وربما يستفتونه في مسائل لا صلة لها بالفقه، أما اليوم فقد تعددت مصادر المعرفة ونوافذ المعلومات، بحسنها وقبيحها، وتأتي وسائل الإعلام على رأس تلك المصادر، التي أدَّتْ بدورها إلى تلاشي تلك الحظوة، وذلك الوهج اللذين كان يُحاط بهما المعلم، وقد جاءت تلك الوسائل لتساهم بدورها في تبديد ما بقي من هيبة المعلم، حتى بات كثير من الطلاب اليوم لا يرى معلميه سوى جسورٍ يعبر من خلالها إلى شهادة؛ يخطو بها من مرحلة إلى مرحلة.

ومما كان يستوقف التلاميذ، ويثير فضولهم، هيئات المعلمين وملابسهم، فقد كانت تشغل الطلاب خصوصًا في أول عهدهم بالمدرسة، حتى ليكاد يرتبط العلم في أذهانهم بالبنطال والجاكيت، وحتى ليكاد يكون كل من لبسهما أستاذًا فلم يكن العمال (الذين يلبسون هذا الزي) منتشرين كحالهم اليوم..

ومما أتذكره من حالنا مع معلمينا ـ رحم الله من مضى منهم ورعى من بقي ـ أننا كنا نعجب من بياض بشرتهم، ومن لحاهم المحلوقة، وتلك عادة لم تكن مألوفة في مجتمعنا الريفي..

وكانت دهشة التلاميذ لا تنقضي أمام حديث معلميهم عن مخترعات ومكتشفات لم يسمعوا بها من قبل

فضلًا عن أن يروها، فيترددون في تصديق أن هناك جهازًا يُسمى (التليفون) يمكن بواسطته أن يتحدث الإنسان مع أناس في بلدٍ آخر، ويتطور الحديث إلى جهاز (التلفزيون) الذي يرى الإنسان فيه مشاهد حية، وأشخاصًا يتحركون ويتكلمون، فينظر بعض الطلاب إلى بعضهم وفيهم من تُلزمه ثقته فيما يقول معلمه بالتصديق، وفيهم مُكذبٌ يحول الحياء وهيبة المعلم بينه وبين الإفصاح عن شكوكه. ولا غرابة أن يكون الحال كذلك وفي هؤلاء الطلاب من درس موضوع (البراد المنزلي) وتجاوز عامًا دراسيًا كاملًا، وهو يعجب لهذه المزايا يدرسها في المقرر ولم يكتشفها في (البراد) الذي يتناول فيه الشاي مع أسرته عندما يعود من المدرسة، وما ذلك إلا لأنه كان يظنه المقصود بهذا الدرس المقرر، ومن عرف حياة الريف وتلقائية أهله لم يستنكر هذه المفارقات..

وكان الطلاب يحاولون تقليد لهجة معلميهم فيكونون مثارًا لضحك وسخرية زملائهم، كما استطاع بعض المعلمين أن يحاكي لهجة تلاميذه، ولكنه في الغالب يقع في مزالق تضحك منه طلابه فيتدخلون للتصحيح لتتحول الحصة من درس في التاريخ إلى حوار في اللهجات، كان الطلاب ـ وخاصة الكبار منهم ـ يسرهم هذا المزلق الجميل الذي يستطيعون استدراج بعض معلميهم للوقوع فيه، بينما يحول حزم وفطنة آخرين بينهم وبين ذلك..

وليس لانبهار الطلاب بمعلميهم الأزهريين حد، إذ يتحدثون في الغالب لغة فصيحة ويفخمون الحروف وخاصة

الراء، ويشددون على مخارج الحروف، وأعجب من ذلك كله تلاوة بعضهم القرآن بصوت عذب رقيق.. وقد ناب عنهم في ذلك أجهزة التسجيل ومكبرات الصوت عندما وزِّعت على المدارس، ولا أنسى رعشة السحر التي تملكتني عندما أشرفتُ على المدرسة من تل قريب بعد سيري وزملائي ستة أكيال على الأقدام، فمحا ذلك كلَّه صوت (القارئ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ﷺ) وهو ينبعث من مكبر الصوت الذي يعلو سقف المدرسة، وتلك عادة أراها حسنة؛ أن يُصدح بالقرآن الكريم في جو المدرسة بين الحين والحين، فلذلك في نفوس الطلاب اثرٌ لا أظنه يزول، ولو حجبته سحائب الغفلة حينًا، ولا ينقطع عجب التلاميذ من معلميهم الأزهريين، فقد عُرفوا بسعة الاطلاع والجلد في القراءة والبحث، ثم إنهم يقدمون دروسهم بجدٍّ لا يجد الطلاب معه مفرًا من أن يستفيدوا ويتعلموا، ولأنهم يلبسون الثياب أو ما يشبهها، ويسدلون الغترة البيضاء على أكتافهم، حتى لكأن هذا هو الزي الشرعي وما سواه فلا..

ومضت أجيال من الطلاب يتعلَّمون على أيدي أساتذة من مصر والشام، قبل أن تصافح عيونهم أستاذًا سعوديًا يلبس الغترة والعقال ويتحدَّث بلهجتهم أو بلهجة شبيهة بها، إذ كان المتخرجون من السعوديين لا يفون بحاجة المدن الكبيرة التي يتخرجون في معاهدها وجامعاتها، ثم إن أكثرهم عندما يأتي مدرسةً يُسند إليه أمر إدارتها، حتى ليكاد المعلم السعودي يكون بين طلابه غريب

الوجه واليد واللسان ـ كما يقول المتنبي ـ فلا ينسجمون معه انسجامهم مع بقية المعلمين، فما هو إلا واحدٌ منهم كان يومًا مثلهم، فأتم دراسته وأصبح معلمًا، وقد استطاع المعلمون السعوديون التغلب على تلك القناعات، بكثير من الجهد والإخلاص والصدق في احتواء طلابهم، حتى أصبحوا ملء سمعهم وأبصارهم، لما يحيطونهم به من عطف أبوي، ونصح صادق، وتفانٍ في تقديم كل شيء أمكنهم تقديمه.

ولكن الحضور اللافت للمعلِّم السعودي أفرز مع مرور الأيام مفاهيم سالبة، عندما انتشر المعلمون السعوديون في المدارس وأصبح المعلمون غير السعوديين قلة، فأصبح أكثر الطلاب لا يهابون المعلم غير السعودي، وربما أساءوا له بنظرة عنصرية مقيتة، تحت تأثير العجب بالذات، وأنهم خيار الناس ومن سواهم في منزلة دون ذلك. وقد رأيت أثر ذلك في نفوس أساتذة فضلاء اكتووا بنار تلك النزعة المقيتة، رأيت ذلك وأنا من بين طلابهم، ورأيته وأنا معلمٌ أقف إلى جوارهم موقف الند ومع ذلك أتعلم منهم وأعرف فضلهم، ثم أجد في طلابنا من لا يقدر لهم فضلًا ولا يُسلِّم لهم بمزية، وكل ذلك ربما يُنسبُ إلى طيش الفتيان، ولكن الذي لا يُغتفر هو ما رأيت من مواقف مديرين يتعاملون مع أساتذتهم غير السعوديين عند توزيع المهام والحصص وكأنهم معلمون من الدرجة الثانية، ومنهم من اشتعل رأسه شيبًا، فلم يشفع له سبق ولا فضلٌ ولا كبر سن.

ولكن الأمر الذي يكاد يكون عاملًا مشتركًا بين المعلمين سعوديين وغير سعوديين هو القسوة على الطلاب واتخاذ العقاب مبدأ للتعليم، وقد استطاعوا بالعقاب وبه وحده أن يصنفوا الطلاب إلى طلاب حريصين على الدراسة يتحملون في سبيل الاستمرار صنوف المشقة، وطلاب يودعون المدرسة دون رجعة.. ولم يكن هذا الأسلوب مستنكرًا للآباء فعهدهم بمعلِّم الكُتَّاب قريب؛ الذي كان يعتمد قبول التلميذ وفق مبدأ (لك اللحم ولنا العظم) وهكذا طور المعلمون مبادئ يعتبرونها من ضرورات المرحلة، كان أقساها (لا ينال العلم إلا راهبٌ أو راهب!!)..

وقد كان المعلمون يتفننون في أساليب العقوبات، ولكن أقساها كانت (الفلقة) التي نصحفها فنسميها (الفلكة) وهي كلمة مولَّدة، يُراد بها عودٌ يربط بطرفيه حبلان تُمسكُ بهما القدمان للجلد. وإن لم يكن الضرب على القدمين (بالفلقة) فإنه يكون - غالبًا - على باطن الكف، وربما اشتدت العقوبة فكان على ظهر الكف، وربما كان بوضع مجموعة من الأقلام بين أصابع الكف والضغط عليها، والعقوبات تتنوع بتنوع المعلمين، فمنهم من يجرب كل أساليب العقوبات، ومنهم من يتخصص في أسلوب معين، وآخر يحدث لكل ذنبٍ عقوبة، وبعضهم كان يترك الأمر للحظة الانفعال، فربما هوت يده على وجه التلميذ، أو على ظهره، وربما شد بشعره وهزه في كل الاتجاهات، وقد يتطور الأمر فيصل حد الرفس واللكمات، أو شد أذن التلميذ، ولا زال في أذن أحد زملاء الدراسة والتعليم

علامة واضحة منذ أيام دراسته الابتدائية، لظفر أستاذ ترك له عبر الزمن أثرًا، وحدثني أحد تلاميذ تلك المرحلة أن أستاذهم كان يضع يد التلميذ تحت رجل الكرسي الحديدية، ويجلس عليه زمنًا يساوي حجم الذنب الذي اقترفه ذلك التلميذ، وفق تقدير المعلم / القاضي / الجلاد، ولا أنسى أن معلمًا ـ سامحه الله ـ ضربني يومًا، وكنت في السنة الثانية الابتدائية، على كفيَّ بعصا المطرقة، وأتذكر أني بكيت عند الضربة الثانية، وجمد الدمع في عيوني بعد الثالثة..

ومع هذا الوجه القاسي لمعلمي تلك الأيام، فقد كان هناك وجهٌ آخر ملؤه الأبوَّة والشفقة والرحمة بالتلاميذ، والإخلاص في تعليمهم، ولو أردتُ أن أجد مسوغًا لقسوة المعلمين فإنني لن أجد إلا ما أسميه (مفهوم رسالة المعلم) فقد كان المعلم والمجتمع وقبل ذلك المسؤولون يقيسون نجاح المعلم أو فشله بمدى إتقان تلاميذه للعلم الذي يقدمه لهم، ولعلَّ هذا المفهوم امتداد لمفهوم رسالة معلم الكُتّاب، الذي كان يتقرر إنجازه لعمله تجاه طلابه أو أحدهم، بتمام حفظ هذا الطالب أو الطلاب للقرآن الكريم، أو لمتنٍ من المتون، وقد كان هذا المفهوم سائدًا ليس في الجزيرة العربية وحدها بل في كلِّ البلاد العربية والإسلامية، ولا نزال نتذكر قصة معلم الكتاب الذي ذكره طه حسين في (الأيام) وما تعرض له شيخ الكتاب من توبيخ والد (طه حسين) عندما أخفق التلميذ في تلاوة ما ادعى إتمام حفظه، مما اضطره لإعادة تعليم تلميذه القرآن من

جديد، فحكم عليه أولًا بالفشل، وبعد أن ثبت حفظ التلميذ، حكم بنجاحه، واستحقاقه المكافأة. وهنا نرى دور الأب (ولي الأمر) في تقويم أداء المعلم، وكذلك قصة الأستاذ (أحمد السباعي) مع معلِّمه في الكتاب، ولذلك فحين يتندَّر بعض الشيوخ بقول آبائهم لمعلميهم: (لك اللحم، ولنا العظم) فإنه لا يقول ذلك تسليمًا للمعلم بهذه القاعدة، وإنما هي نوع من قطع الحجة على المعلم عندما يخفق في أداء رسالته، وهي في الوقت نفسه إزالة كل متكأ لتكاسل التلميذ، فهذه الجملة تضيف عبئًا آخر على معلِّم الأمس..

بينما أخذ التغير يدب إلى هذا المفهوم يومًا بعد يوم، حتى أصبح المعلِّم ربما يقنع من الغنيمة بالإياب، فتقدير أداء المعلِّم لم يعد مرتبطًا بمستوى تلاميذه بقدر ارتباطه، بتنفيذ التعليمات، واستسلامه للتعميمات، وتقيده بلوائح وأنظمة المدرسة التي يأتي على رأسها الحضور والانصراف، ولغة التفاهم مع مدير المدرسة ومشرف المادة، وحسن العلاقة بالتلاميذ، وكسب ودهم، ولو على حساب تحصيلهم، وهذا ما عرَّض به أحد المعلمين قائلًا:

ورضى المدير قضيةٌ مفهومها
أنَّ المدرس قد يصير جديرا
إن يرض عنكَ تجئك كلُّ رضيةٍ
والذنبُ صار - بعفوه - مغفورا
وإذا فشلتَ بنيل حُسنِ وداده
عشتَ الليالي ساهدًا مكدورا

أما المعلِّم الذي كانت هيبته تقرع قلوب طلابه، عندما يطل من باب المدرسة، فقد غاب عن ميدان التعليم اليوم، مع أن الأمر ليس أمر هيبة فحسب، بل هو متعلِّق أساسًا بمفهوم الرسالة، أما مسألة هيبة المعلِّم التي نرى المعلمين يندبونها منذ زمن فتلك قضية أخرى، وهي ليست ضحية منع الضرب، كما يظن بعض المعلمين، فالهيبة - في رأيي - ليست وجهًا آخر للخوف بل هي وجه آخر للاحترام، والاحترام لا يُجلبُ بالعصا، ولذا فهي ضحية لعددٍ من العوامل، يأتي على رأسها فقدان الرغبة في التعلُّم لدى أكثر الطلاب، وعدم إيمان بعض المعلمين بقدسية الرسالة، فيؤدونها على مضض، كأي وظيفة، ثم إن المعلم لم يعد في أنظار تلاميذه شخصًا مجللًا بالمثالية كما كان الطلاب سابقًا يرون معلميهم، فلم يكونوا يرون المعلِّم إلا في أحسن أحواله، أما اليوم فقد كُشفت أوراق المعلمين، فإذا بهم لا يختلفون كثيرًا عن بقية خلق الله، فلا تكاد تخلو أسرة من معلم، فيأتي التلميذ إلى المدرسة وقد عرف كيف يعيش المعلم تفاصيل حياته، بل ربما يرى هناته وما لا يليق من مثله، فيسقطها على بقية المعلمين، وهكذا تساقطت هيبة المعلم، كحبات العقد واحدة تلو الأخرى، فأنى لمعلِّم يقضي عصر يومه في الملعب تحت أنظار طلابه، أو معلم يقضي وقته وراء مقود سيارته يتجول في السكك والطرقات، وآخر يراه تلاميذه داخلًا المقهى أو خارجًا منه، وآخر يقضي آخر يومه وأول ليله في معارض السيارات يزايد في أثمانها؛ أنى لهؤلاء جميعًا بهيبة كتلك

التي يتجلل بها ذلك المعلم الذي لا يُرى إلا في مدرسته أو مسجده أو مكتبته..

ومع هذا فقد بقي وسيبقى كثير من المعلمين اليوم وغدًا وفي كل عصر يمتلكون قلوب طلابهم، لأن الطلاب ـ كل الطلاب ـ سكنوا قلوب أولئك المعلمين، فقط لأنهم طلاب، ولأن تلك القلوب أشربت رسالة التعليم، رسالة سامية لا وظيفةً للكادحين الذين يتعيشون بها حتى إذا أدركهم رزقٌ أوفر من طريقٍ آخر، قطعوا كل آصرة تربطهم بماضيهم في المدرسة ومع الطلاب والكتب والطباشير والألواح، فما أولئك بمعلمين، ما أولئك بمعلمين..

في مدرسة القرية كانت لنا أيام(*)

كان صباحًا بهيجًا وغريبًا ذلك اليوم الذي أيقظوني فيه مبكرًا لأن أبي سيأخذني إلى المدرسة التي لا أعرفها ولكنها شيءٌ جديدٌ، ولكل جديد لذة، ـ كما يزعمُ الحطيئة ـ على غير العادة ناولتني أختي الكبيرة ثوبي، وثبتت الغترة البيضاء على رأسي، فظننتها من ضرورات الشيء الذي يسمونه المدرسة، ركبت السيارة أيضًا لأول مرة، ولم يكن الطريق وصل إلى بيتنا، فسرنا على الأقدام كيلين تقريبًا ثم أخذنا أحدهم في سيارته، أدهشتني الأشجار التي تسير نحونا ثم تجاوزنا إلى الوراء، لم أتنبه أنها السيارة التي تسير، رأيت بيوتًا وأشجارًا تركض في الاتجاه المعاكس كان منظرًا أثار دهشتي، تركني أبي في المدرسة بعد أن تحدث قليلًا مع رجلٍ كبير، عرفت فيما بعد أنه فراش المدرسة، أخذني بيدي وأجلسني في غرفة مع مجموعة من الصغار، لا أدري أين ذهب أبي وسائق السيارة.

أعطونا كتبًا مليئة بالرسومات فرحت بها كثيرًا برغم

(*) مجلة المعرفة، العدد (188) ذو الحجة 1431هـ ـ نوفمبر 2010م، ص.ص (120 ـ 121). والعنوان على نحو عنوان كتاب أنيس منصور: (في صالون العقاد كانت لنا أيام).

شعوري بالغربة المخيفة وكثرة الوجوه الجديدة التي اقتحمت عينيَّ هذا الصباح، حملتُ كتبي واتجهتُ إلى معلم يلبس (بنطلونًا) وقميصًا يجلس على كرسي دوار في فناء المدرسة، فقلتُ له: (أبغى أروح)؟ قال: (هات الكرسي وتعال) مشيرًا إلى الكرسي الضخم الذي يجلس عليه، وقام متجهًا إلى إحدى الغرف، عرفت فيما بعد أنها الإدارة، فكرت كيف أحمل كرسيًا أضخم مني، ثم اهتديت إلى طريقة، أستطعت بها أن أزحزح الكرسي الضخم من مكانه، فوضعت رأسي على مقعد الكرسي، وأمسكت بذراعي الكرسي وقلبته على رأسي، ثم استدرتُ باتجاه باب الغرفة وسرت بخطوات متلكئة كأنما الكرسي يسير مقلوبًا فلا يكاد يبدو من حامله شيءٌ. وضعتُ الكرسي في منتصف الغرفة، قال لي: مع السلامة..

خرجتُ من المدرسة وسرتُ باتجاه بيتنا ستة أكيال، تحت وهج الشمس، في صراع مع الغترة التي لَمَّا يألفها رأسي بعد..

كان المعلِّم الذي أذن لي بالأمس معلمنا في الصفين الأول والثاني، كان معلمًا فلسطينيًا أنيقًا، جميل الخط، علمنا جميع دروس الصف الأول الابتدائي والثاني، وكنت أهابه وأكاد أحبُّه، لولا هنات ليست هينة في مقاييس التربية، وإن عددتها يومئذ كذلك، من ذلك أنه كان يفضِّل بعض الطلاب عليَّ، فلم يكن لي أن أكون في المرتبة الأولى حتى جاوزت الصفين اللذين درسنا فيهما..

ومما صرف قلبي عنه برغم أن حب المعلم في وعينا

من الواجبات، أنه استوقف الطابور الذي كنت في مقدمته يومًا، بعد انصراف بعض الصفوف، وتقدَّم إليَّ ثم رفع طاقيتي من فوق رأسي، وتساءل على مرأى من المعلمين والطلاب قائلًا: أهذه طاقية طالب متفوق؟! وكانت فعلًا غير نظيفة، ثم سألني: أأنت يتيم؟ وفهمت أن اليتيم من لا أم له، فلا علاقة للأب بنظافة الطاقية، فأجبتُ: أمي في المستشفى ـ وقد كانت - رحمة الله عليها ـ منذ بداية العام في المستشفى ـ فأعادها إلى رأسي، وأشار لي بالسير، وكنت في مقدمة الطابور، فَقِذْتُ زملائي إلى الفصل وأنا أشعر أن العيون تنهشني، ثم جلست وعجبت أن زملائي لم يعلقوا على عدم نظافة طاقيتي، هل كان تعاطفًا منهم؟! ربما..

وموقف آخر حدث لي مع هذا المعلِّم، كنت المذنب فيه ولكن العقوبة كانت أكبر بكثير من الذنب، وكان يمكن معالجته بكلمة، ذلك أنه دخل الفصل بعد الفسحة التي نتناول فيها إفطارنا، وكان أحد زملائي ﷺ يأكل بسكويتًا بالسمسم، فوضعه في الدرج وكنت أجلس خلفه مباشرة، فرأيت البسكويت، فقضيت الحصة أنتظر خروج المعلم من الصف لأنال المكتوب من هذه الغنيمة، وقاربت الحصة على الانتهاء، وتوثبت للانقضاض على درج زميلي، وسمعت صوت الصافرة ـ وكانت الصافرة علامة بداية ونهاية الحصص لعدم وجود الكهرباء ـ وكانت إحدى عيني على البسكويت والثانية على الأستاذ، وعندما خطى بإحدى قدميه خارج عتبة الفصل ولـمَّا تزل الأخرى في الصف

مددتُ يدي من على كتف زميلي وقبضت على البسكويت وقبل أن أسحبها أمسك بها زميلي وصرخ صرخة دوت في كل أرجاء المدرسة، فاستدار الأستاذ ليراني متلبسًا بالجرم الذي لا أعرف كيف تورطتُ فيه. فتحت أصابعي ليأخذ زميلي ما علق بكفي من البسكويت، على مرأى من الأستاذ، ولم يُفلت زميلي يدي إلا في يد الأستاذ الذي قبض عليها ودار في غرف المدرسة يجرني خلفه يبحث عن عصا، فكانت تلك الخطوات التي سرتها خلفه أقسى عليَّ من كل عقوبة، وفي إحدى الغرف وجد مطرقة لها عصا خشبية طويلة، فأمسك بشماله كفي وثنى أصابعي للخلف، وبيمينه أمسك بحديدة المطرقة وضرب كفي بعصا المطرقة حتى لم أعد أفرّق بين ألم الضربة والتي تليها.. وما كان جرمي يوجب هذه العقوبة بالغة القسوة.. وكان مدير المدرسة شابًا أنيقًا وفاضلًا للغاية، ولكنه لم يكن ليعترض على مثل هذه الممارسة..

في الصف الثالث علّمنا معلّم من الطائف اسمه (حميّد) وكان جادًا ومنظمًا في تعليمه، وفي الصف الرابع علمنا مجموعة من المعلمين، كان منهم أستاذ أردني خمسيني اسمه (محمود التكروري) لم أرَ قبله ولا بعده معلمًا في أبوته وعطفه ورقته معنا، في زمنٍ ندر فيه هذا الطراز، وقد بقيت أكاتبه سنوات بعد رحيله. ومنهم الأستاذ (فياض) وكان فياضًا بالرجولة والحيوية فكان صوته يبلغنا من أي صف يدرس فيه، وكأنه لا يجيد الحديث الهامس، وقد رأيناه أنا وزملائي يومًا يبكي بكاءً مرًا، في فناء

المدرسة، فعجبنا، فالرجال في وعينا لا يبكون، وعندما سألنا قالوا جاءه نبأ وفاة أبيه في رسالة استلمها من البريد للتو.. وغاب عنا يومًا أو يومين ثم عاد لسابق عهده وقد شاع في المدرسة أن النبأ غير صحيح، بل كان مكيدة ممن بعث الرسالة..

وفي الصف الخامس درسنا مجموعة من الشباب المتخرجين حديثًا، ومنهم مدير المدرسة وهو شابٌ من الباحة، يبدو أنه تخرج قريبًا من معهد إعداد المعلمين، وكان لا يخلو من طيش، فلم يكن يستيقظ في بعض الأيام إلا عندما تحين حصة التجويد أو القرآن وقد تكون الرابعة أو الخامسة وكان سكنه إلى جوار المدرسة، وربما بدأت الحصة وقد شرع في التدخين، فيدخل الصف بدخينته، وربما صحح التلاوة بين نفس من دخينته وآخر.. ونحنُ ننظر لحركة الدخان يعلو باتجاه سقف الخيمة، حيثُ كنا ندرس في خيام نُصبت إلى جوار المدرسة عندما قررت لجنة من إدارة التعليم أن المبنى الحجري آيل للسقوط، ومن الطريف أن أحد هؤلاء المعلمين كان يدرسنا الجغرافيا، وكان الدرس السابق عن الإمارات العربية المتحدة، فسأل: من يعرف في أي الإمارات تقع رأس الخيمة؟ فتسابقنا للإجابة، فاختار واحدًا من الذين رفعوا أيديهم، فأشار إلى رأس الخيمة التي ندرس فيها، فلم نتمكن من الضحك، إذ هوت يد المعلم على وجه الطالب وعيناه معلقتان جهة رأس الخيمة، ثم لم يُجب أحدٌ منا عن هذا السؤال بعد، ولكننا تندرنا على زميلنا بقية العام..

هذه خواطر تلميذ مرَّ بمقاعد المدرسة الابتدائية منذ نحو ثلاثين سنة، لعلَّ من طلابنا من يقرأها فيتصوَّر الفرق بين مدارسنا ومعلمينا ونحن وبين طلاب اليوم ومعلميهم ومدارسهم..

محمد الزيداني... المعلم المثال(*)

بعد أن أنهيتُ دراسةَ الصف الأول المتوسط في مدينة أبها التي لم أتصالح معها، قُدِّرتْ لي العودةُ إلى رجال ألمع، لدراسة الصف الثاني المتوسط عام 1984م، في مدرسة (مندر العوص) ، التي كانت تضم أبرز الوجوه التعليمية في المحافظة، بوصفها من أهم المدارس المتوسطة في المحافظة؛ ليس لتقدُّمها بين مدارس المحافظة زمنيًا فحسب، بل لأنها فوق ذلك تمتاز بموقعها المتوسط، والقريب من مركز المحافظة، ولذلك فقد كان معلمو هذه المدرسة أنفسُهم نواةَ العمل التربوي والإداري في إدارة التربية والتعليم بالمحافظة، التي افتُتِحَتْ فيما بعد، فقد كان من بين معلميها إضافةً إلى مديرها الأستاذ الحسين بن سليمان الحفظي (مدير التربية والتعليم فيما بعد) ووكيلها الأستاذ: الحسين بن محمد الزمزمي، ومعلم التربية البدنية الأستاذ: يحيى جابر الزيداني ـ الذي كان يعلمنا مع رياضة الأبدان، سمو الأرواح ـ مجموعةٌ من الأساتذة المعاقدين الذين كانوا مِهْنِيين في تدريسهم بشكلٍ لافت، ومن أبرزهم

(*) **مجلة المعرفة**، عدد (199)، أكتوبر 2011م، ص.ص (148 ـ 151).

الأستاذ: عاطف الشناوي أستاذ اللغة العربية، الذي كان يهتم بتدريبنا على العمل المسرحي، وتذوّق النصوص الأدبية، والأستاذ سيد سرور الذي كان يحاول أن يجعلنا نعيش التاريخ الذي ندرسُهُ بحماسة نادرة، والأستاذ السوداني: بكري بلال مدرس التربية الفنية، الذي لم يكن مجرد معلم للفنية، بل كان فوق ذلك اسمًا بارزًا في المشهد الفني السوداني، كشف لنا ذلك تَصَفُّحُنا لعدد من الصحف التي نجدها في حجرة الرسم بالمدرسة، فنقرأ بعض اللقاءات معه، وتغطيات للمعارض التي أُقيمتْ له في داخل السودان وخارجه، ونَطَّلِعُ على صورٍ لبعض المناسبات التي كُرِّم فيها. كل هذه السمات في شخصيات معلميَّ في مدرستي الجديدة، كانت جديدة أيضًا بالنسبة لي؛ ففي المدينة حيثُ درستُ السنة الأولى المتوسطة، كان أكثر معلمينا قد بَرِمَ بالتدريس، أو انغمسَ في تجارة العقارات أو السيارات، ومن لم يكن من الفئتين فإنه في منطقةٍ وسطى بينهما، أو أنَّه في منطقةٍ وسطى بين التلاميذ والمعلمين، إذ كانتْ مدرستنا حقلًا لتدريب طلاب الجامعة على العمل التربوي، وقد أصبحتُ أحد المتدربين في ذات المدرسة بعد دراستي فيها بعشر سنوات، وفي القاعة التي درستُ فيها تحديدًا..

في الحصة الثالثة من يومنا الدراسي الأول دخل علينا الصفَّ معلمٌ طويل القامة، حسنُ الهيئة، يمتلأُ شبابًا؛ سلَّم ثم استدار إلى السبورة، وقد صمتَ الجميع حتى لكأنما هو بمفرده في الصف، فلا يُسمعُ سوى صوتِ

الطبشور الذي كسره على حافة السبورة، ثم أمسكه بين أصابعه بالعرض، وخَطَّ به أسفل السبورة خطين متوازيين، ثمَّ رفعه إلى مستوى عينيه ليتأكد أن قد أصبح مشطوفًا بشكل مناسب، ثم كتب بخط الرقعة الذي لم أرَ قبله أجمل منه: (المادة/ تفسير) وتحتها كتب: (الموضوع/ تفسير آيات من سورة الملك) ، ثم كتب الآيات بخطٍ تميل فيه الكلمات قليلًا، بينما تستقيم السطور، والأعجب من اتساق خطه، واستقامة حروفه، نهايات السطور التي انتظمت فوق بعضها، فلا يزيد سطرٌ عن سطر أو ينقص موضع حرفٍ واحد. انتهى من كتابة الآيات ولم ينتهِ عجبي وإعجابي، رحَّب بالطلاب في يومهم الدراسي الأول في عامهم الجديد، ولم ينس الترحيب بالطالب الجديد، الذي يتمنى له التوفيق والارتياح في مدرسته الجديدة، بين زملائه الجدد، ثم طلب من أحد الطلاب قراءة الآيات المكتوبة على السبورة، ففعل، ثم أشار إليَّ بأن أعيد القراءة؛ ربما أرادَ أن يُدْخِلَني في جو المكان الجديد، وربما ليروز هذا الطالب الجديد، الذي ستكشف قراءته المرتبكة عن الفرق بينه وبين التلميذ الذي سبقه بالقراءة، ومع ذلك فكثيرًا ما كان يُكَلِّفُني بقراءة الآيات في الحصص التالية، ما اضطرني إلى تحضير الآيات باستمرار قبل دراستها.

بعد الحمد والديباجة، والتعريف بالسورة؛ بدأ بإعراب السطر الأول من الآيات، ثم عاد فَفَسَّرَ الآيات تفسيرًا وافيًا في لغة فصيحة، وبيانٍ مدهش، ونبرةٍ حلوة، والعجيب أن الحصة كانت كافية لكتابة الآيات بهدوء،

وقراءتها مرتين، وإعراب جزءٍ منها، وتفسيرها تفسيرًا وافيًا، ومناقشة الطلاب حولها، ثم قراءة شرح الآيات من الكتاب، وبقي من الحصة دقائقُ جَلَسَها صامتًا متأملًا، بينما تدور همساتٌ في جانِبَي الصف لا يلتفت إليها، فلما سمع صافرة نهاية الحصة (ولم يكن هناك كهرباء ولا جرس) نهض مغادرًا، وفي طريقه إلى الباب قال: السلام عليكم، وما زال السؤال يدور برأسي عمَّن يكون هذا المعلم/ المثال؟!

وبرغم شغفي بمعرفته إلا أنني لم أتواصل بعدُ مع طلاب الصف بشكلٍ يُتيحُ لي سؤال أحدهم عنه، فآثرت الصمت، ولكن الأيام التالية حملتْ لي الجواب، بأنَّه الأستاذ: محمد بن أحمد الزيداني، وأنَّه مدرسٌ للغة العربية، ولكنه تولى تدريس التفسير إضافةً إلى تخصصه تخفيفًا عن مدرس التربية الإسلامية، وتلك شيمةٌ تعكس جانبًا من خصاله وشمائله الكريمة..

عرفتُ فيما بعد أنه ليس معلمًا فحسب بل هو فوق ذلك أديبٌ وشاعرٌ وخطيبٌ مُصْقِع، ومتكلمٌ نادرُ المثال في بيانه، وانسياب أفكاره، وفصاحة لسانه؛ وعلى كثرة المعلمين الذين علموني في مختلف مراحل الدراسة حتى الجامعة، وكثرة المعلمين الفضلاء الذين جمعتني بهم حياتي العملية، التي بلغت العشرين سنة؛ لم أجد من يقترب من أستاذنا محمد الزيداني في شمائله أو بعضها، فضلًا عن أن يكون مثله..

مضى هذا العام يومًا بعد يوم، ودرسًا بعد درس؛

وصورة (الأستاذ: محمد الزيداني) تزداد تألقًا وجلالًا، حتى صرتُ ـ وأظنُّ زملائي كذلك ـ أرقبُ درسه بشوق، وينتهي درسه وقد مُلئتُ له مهابةً وإجلالًا، واستقيتُ شيئًا من رصانته، وشيئًا من فصاحته، مع ما يهبنا من معرفته، وكثيرًا ما كنت أعيد النظر إلى كلمات التشجيع والثناء التي يُعلِّق بها على واجباتي بخطه الجميل، وإني على سروري بها كنتُ أعلم أن ما كتبتُ يتقاصرُ عنها كثيرًا، حتى جاء آخرُ يومٍ قبل اختبارات نهاية العام، حيث انتهى من آخر درسٍ في التفسير ـ واللافت أن آخر درسٍ لم يكن يختلف عن أول درس، فقد كانت أفعاله وأقواله محسوبة، فلا يترك شيئًا للصدفة، أو للظروف ـ وكعادته بعد أن انتهى من الكتابة والشرح والقراءة، طلب منا دفاتر الواجب، فنزل عليَّ طلبُهُ هذا كالصاعقة، فلستُ أدري كيف غفلتُ لأول مرة منذ بداية العام عن الواجب، ولم يكن يخطر ببالي أنَّه كلَّفنا بواجبٍ منزلي، قَلَّبْتُ دفتري، فوجدتُ آخر الواجبات مصححًا ومذيلًا بالثناء والدعاء والتوقيع، وكانت مهابتُهُ وحيائي يمنعاني عن الإفصاح له بنسياني الواجب، فوضعتُ دفتري بين دفاتر زملائي، وتشاغلت بتقليب صفحات كتابي، منتظرًا أن يسألني عن الواجب، أو أن يعاتبني لأني سلمت الدفتر فارغًا منه، ولكن المفاجأة أنَّ دفتري أُعيد إليَّ دون أن يكلمني، فتناولتُ الدفتر ووضعته في الدرج دون النظر إليه، متشاغلًا بالقراءة، فلما خرج من الصف، بادرتُ إلى فتح دفتري لأجده قد كتب في منتصف الصفحة البيضاء: (كلُّ عام وأنت بخير.. مع تمنياتي لك بالتوفيق)

كتبَ هاتين العبارتين بخط الرقعة الجميل؛ قرأتها غارقًا في بحرٍ من الخجل، لنسياني الواجب، ولموقفه النبيل تجاه تلميذٍ قدَّم دفتره فارغًا من الواجب..

في السنة التالية وتحديدًا في منتصف عام 1985م، افتُتِحَتْ إدارة التربية والتعليم بمحافظة رجال ألمع، وترك أكثرُ المعلمين المدرسة ليكونوا النواة الأولى للعمل الإداري والتربوي في الإدارة، غير أن حظنا كان سعيدًا حين لم يلحق أستاذنا محمد الزيداني بأولئك، بل بقي ليقود المدرسة، وإن فقدنا إطلالته معلمًا، وفقدنا منظر السبورة التي تتحول في كل حصةٍ من حصصهِ إلى لوحة من روائع خط الرقعة، فقد كسبناه قائدًا لمدرستنا، تلك السنة، ولما ظهر من قدرته الإدارية والقيادية الفائقة، كُلِّفَ بإدارة ثانوية الصديق، التي التحقتُ مع زملائي بها، لندرس سنوات المرحلة الثانوية؛ ما بين عامي 1986م و 1989م، وهي السنوات نفسها التي قضاها في إدارتها. وإني لأجاوزُ مضطرًا ما يحضرُني من مواقفه ونوادره في تلك السنوات الثلاث؛ لضيق مجالِ القول هنا، ولعلَّ مقامًا آخر يُتاحُ لي فيه ذكرُ شيءٍ منها، لتكون دروسًا أخرى لمعلمي اليوم، ومعلمي والغد.

تنقَّل بعد ذلك في مسؤوليات تربوية وإدارية متعدِّدة بإدارة التربية والتعليم، بينما تركتُ المحافظة للدراسة الجامعية، ولم تنقطع صلتي به خلال هذه الفترة، ولكن لقاءاتنا كانت محدودة، فلا تتجاوز واجب زيارة التلميذ لأستاذه، أو الاتصال لتحيته، وتجديد العهد به، أو حضور

خطب الجمعة في مسجده، حيثُ كنت مع أداء فريضة الجمعة أنعم بالمتعة الأدبية، باستماع مواعظه التي يقدّمها، في بيانٍ أخّاذ، وفصاحةٍ نادرة، وإيجاز وافٍ..

وبعد مضي عشر سنوات منذ افترقنا ذات وداع في ثانوية الصديق عام 1989م، جمعني العمل مجددًا بأستاذي في إدارة التربية والتعليم عام 2000م، فكنا في مكتبين متجاورين، حيثُ كان يرئس قسم الثقافة والمكتبات، وكنتُ أرئس قسم الإعلام التربوي، ويا لسعادتي بمجاورة أستاذي، حيث أذهبت الألفةُ والقربُ بعضَ قيود التلميذ أمام أستاذه؛ وإن لم تزل مهابته وجلاله وكاريزماه الخاصة كهالة تحيطه، لا يستطيع النفاذ منها من لا يزال يرى نفسه تلميذًا صغيرًا بين يدي أستاذٍ كبير. وخلال هذه السنوات التي قضيناها متجاورين كنت أتردد على مكتبه لنتحدث، ويكرمني بقضاء بعض الأوقات في مكتبي، وفي الحالين أنعم بوصاله، وأفيد غاية الإفادة من ثاقب نظره للأشياء، بل إن الساعات التي كنّا نلتقيها كانت بالنسبة لي ولمن يجالسه دروسًا عملية في حسن القصد، وتدبر العلم، وتأمل الحياة، ولذة الطاعة، والتفكر فيما حدث وما يمكن أن يحدث، وفي عام 2004م، فاجأنا باتخاذه قرار الاستقالة من العمل التربوي، ولأنه ليس بالذي يتردد في اتخاذ القرار؛ فهو لا يُقدِمُ عليه إلا بعد أن يكون قد تفكر في نتائجه، وقدَّر دوافعه وتوابعَه، فلم يكن أمامنا سوى أن نهنئه على الخلاص من ربقة الوظيفة، وفي الوقت ذاته نأسف على فقدانه في المكان الذي كان يملؤه عطاءً،

وإفادةً وإجادة، بوصفهِ أنموذجًا متفردًا في سلوكه الخاص والعام، فقد كان بحق النموذج التربوي والإنساني الفريد المُجْمَع على أنه المثال الذي جمع بين رهافة حس الشاعر، ورقته، وبين مثالية الرجل المتدين الخلوق، والمثقف الأصيل، والتربوي المتمرس، واللغوي الضليع، والخطيب المُصْقِع، والخطاط المبهر، والشخصية الآسرة، ولهذه الصفات الحميدة، وغيرها ـ مما يتفاوت الناس في إدراكه ـ فقد كان يملأ قلوب طلابه مهابةً، لا تلبث أن تتحول إلى احترامٍ وحب؛ فيسعون إلى الاقتداء به، ولو في جانبٍ من جوانب مثاليته..

وبإلحاح من بعض طلابه ومحبيه، جمع بعض رؤاه التربوية، وتجاربه الميدانية، وأصدرها في كتابين هما: (من.. أوراق معلم) و (هُتاف النجاح)، وهما آخر ما صدر من كتبه ودواوينه، إذ سبقهما ثلاثة دواوين شعرية: (عماد الراية، من أشجان الغربة، صدى الذات)، وكتابٌ نثريّ بعنوان: (رسالة القبر)، وثلاث مجموعات من خطب: (روضة الإيمان) ..

ومنذُ تركَ العملَ التربوي عادَ بكُلِّيَتِهِ لمكتبته ومسجده، وأسرته، مع اضطلاعه بمسؤولياتٍ اجتماعية فرضها حبُّ الناس إياه، وثقتهم فيه، فهي تسعى إليه دون أن يرغبها، ولكنَّهُ يرضخُ عندما يخشى أن في امتناعهِ تفويتًا لمنفعة يرجوها للناس، إيمانًا منه بأن خير الناسِ أنفعهم للناس، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم..

ولهذه السمات التي هي قليلٌ من كثير فإن هذه الشخصية الإنسانية التربوية النادرة؛ لا تغيب عن ذاكرتي مهما كَلَّتْ، ولا تخطئها بصيرتي مهما قلَّت، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كُنَّا للغيبِ حافظين.

Inv: 10

Date:4/2/2014

عندما كان الكبار تلامذة

مما يلفت انتباه قارئ السِّيَرِ الذاتية بروز مرحلة التَّعلُّم بأحداثها، ومواقفها، وتأثيرها على اتجاه الكاتب، وتأسيسها للمراحل التالية من حياته، وبداية تكوين العلاقات الإنسانية مع المحيط الذي يتجاوز حدود الأسرة، فنجد رصداً دقيقاً لمواقف المعلمين وتصرفاتهم، وكلامهم وحركاتهم وسكناتهم، وعلاقاتهم بتلاميذهم، نلحظ ذلك في حياة المثقفين بعامة، وفي حياة الأدباء بشكل أوضح، مما يجعلهم يفردون صفحات غير قليلة في سيرهم الذاتية لمراحل تعليمهم؛ ولأنها مرحلةٌ مفصلية في حياة هؤلاء الكتاب، تجمع بين جانبي الأدب والتربية، ولأن هذين الملمحين هما مجالا اهتمامي الوظيفي والمعرفي فقد جمعت بعض ما قرأت في سير ذاتية لأبرز الأدباء والمثقفين والمفكرين العرب؛ الذين كتبوا عن هذه المرحلة من حياتهم.

المؤلف



